



فاطمة عطا جبار(*)

(*) أستاذ مساعد دكتور - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ دائرة البحث والتطوير Fatma.ata1101b@copolicy.uobaghdad.edu.iq

المستخلص

انعطفت دراستنا على الكشف عن آليات صناعة الهوية الروسية في الفكر السياسي الروسي، بوصفها نتاجاً لإرادة سيادية موجهة من الأعلى نحو الأسفل. وبحث الدراسة في الكيفية التي تمكن بها الحاكم الروسي من تحويل هذه الهوية من مجرد ضرورة وجودية في مرحلة التأسيس الأولى (عهد إيفان الثالث) إلى منظومة أيديولوجية معقدة عبر استيعاب وتوظيف الصراع الفكري السياسي بين تيارات التغريب والسلاف الروسين. ولم تكتفِ الدراسة بالرصد الوصفي، بل سعت إلى بيان دور هذه التيارات وأثرها بكونها مختبرات فكرية زودت السلطة بالأدوات اللازمة لصهر المتناقضات (السلافية والتغريب) في بوتقة واحدة تخدم قوة الدولة واستقرارها وتحافظ على قوتها أمام النظام العالمي. وتنتج الدراسة أن سبب نجاح النموذج الروسي المعاصر في استعادة مكانته الدولية يكمن في استلزام هذا النموذج الهندسي، الذي يفرض الانحياز الراديكالي ويتبنى التوفيق الحكيم، مما جعل من الهوية أداة طيعة بيد القرار السياسي لتحقيق القبول والاجماع الوطني وتأمين مصالح الدولة الروسية القومية واستقرارها.

الكلمات المفتاحية

الهوية الروسية، التيارات الفكرية، الفكر السياسي، دور الحاكم، صياغة الهوية

للاستشهاد بهذا البحث:

جبار ف. ع. (٢٠٢٦). التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية ودور الحاكم في صياغتها. مجلة

كلية القانون والعلوم السياسية، ٣٤، ٣٧٩-٣٣٢. <https://doi.org/10.61279/mz0evn72>

تاريخ الاستلام: ٣ حزيران ٢٠٢٦ تاريخ القبول: ٢٣ آب ٢٠٢٦ تاريخ النشر ورقياً: ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٢٦

متوفر على الموقع الإلكتروني: ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٢٦

متوفر على: <https://jpls.edu.iq/index.php/jpls/ar/article/view/669>

متوفر على: <https://iasj.mohesr.gov.iq/journals/journal/view/253>

ترميز رقمي: <https://doi.org/10.61279/mz0evn72>

مفهرسة على: <https://doaj.org/toc/2664-4088>

المجلة تعمل بنظام التحكم المجهول لكل من الباحث والمحكمين

هذا البحث مفتوح الوصول ويعمل وفق (نسب المشاع الإبداعي) (نسب المُصنّف - غير تجاري - منع الاشتقاق ٤.٠ دولي)

يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر (Copyright) لأعمالهم المنشورة في المجلة، مع منح المجلة حق النشر الأول وذلك حسب سياسات المجلة

نسخة المجلة المنشورة هي النسخة الرسمية المعتمدة لأغراض التوثيق والاستشهاد العلمي

المجلة مؤرشفة في مستوعب المجلات العراقية المفتوحة

للزبد من المعلومات مراجعة الروابط من خلال الضغط على الشعارات ادناه



The Political and Intellectual Currents Shaping Russian Identity and the Role of the Ruler in its Formulation

Fatima Atta Jabbar(*)

(*)Assistant Professor Dr. - Ministry of Higher Education and Scientific Research - Directorate of Research and Development

Fatma.ata1101b@copolicy.uobaghdad.edu.iq

Abstract

This study examines the mechanisms of constructing Russian identity in Russian political thought as a product of sovereign will directed from the top down. It investigates how Russian rulers transformed this identity from an existential necessity during the early founding period under Ivan III into a complex ideological system by employing intellectual and political conflicts between Westernizers and Slavophiles. The study goes beyond description to analyze how these currents served as intellectual laboratories, providing the authorities with tools to reconcile Slavism and Westernization within a unified framework that strengthens state power, stability, and international standing. It concludes that the contemporary Russian model's success in restoring its international position lies in adopting this integrative approach, which rejects radical alignment in favor of prudent reconciliation. Consequently, identity becomes an instrument of political decision-making, helping achieve national acceptance and consensus while safeguarding Russia's national interests and stability within the international system.

Key Words

Russian identity, intellectual currents, political thought, the role of the ruler, identity formation

Recommended citation

جبار ف. ع. (٢٠٢٦). التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية ودور الحاكم في صياغتها. مجلة كلية القانون والعلوم السياسية، ٣٤، ٣٧٩-٣٣٢. <https://doi.org/10.61279/mz0evn72>

Received 11 May 2026; accepted 21 July 2026

published 25 Oct. 2026 ; published online: 25 Oct. 2026

Available online at: <https://jlps.edu.iq/index.php/jlps/ar/article/view/669>

Online archived copy can be found at: <https://iasj.mohesr.gov.iq/journals/journal/view/253>

Indexed by: <https://doaj.org/toc/2664-4088>

Crossref DOI: <https://doi.org/10.61279/mz0evn72>

This article has been reviewed under the journal's double-blind peer review policy.

This article is open access and licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License (CC BY-NC-ND 4.0).

Authors retain the copyright to their works published in the journal, while granting the journal the right of first publication according to the journal's [policies](#).

The published version of the journal is the official version authorized for documentation and scholarly citation purposes.

The journal is archived in the Iraqi Open Access Journals database .

For more information, please refer to the links by clicking on the logos below .



المقدمة

تعتبر الهوية السياسية وفق الفكر السياسي الروسي، والتي سعى الحاكم الى بلورتها كعقيدة رسمية تحدد علاقة الدولة بمواطنيها وبالعالم الخارجي، من اكثر المفاهيم تعقيداً وصعوبة كمحاولة لفهمها وفق المعايير السياسية التقليدية، فالهوية لا تقدم في هذا الميدان كحالة ثابتة احادية الجانب او نهائية او مستقرة، بل كعملية صراع مستمرة بين الرغبة في التحديث وبين التمسك بالخصوصية الحضارية بمبتنيات متنوعة. ان البحث في الهوية الروسية هو في اساسه ومضمونه تتبع لدور الحاكم في تشكيل تلك الهوية واعادة صياغتها، ورصد للاجتهادات الفكرية السياسية التي حاولت الاجابة عن الانا الروسية في مقابل مواجهة الاخر الغربي، بضوء معطيات الفكر السياسي الروسي وطابعه المتذبذب بين الانفتاح على الغرب وبين التمسك بالروح الروسية المتميزة، وفقاً لتصور الفكر المذكور. تطلبت دراستنا الولوج في الجذور التاريخية بوصفها عوامل اولية تشكلت فيها ملامح هوية الدولة الروسية حيث ظهر الحاكم في التاريخ الروسي مهندساً للجمال العام، وليس قوة تنفيذية فقط، ومحدد للمسارات التي اختبرتها الهوية الروسية، اذ استناداً لهذه الجذور انبثقت صراعات فكرية كبرى تمثلت بثنائية (التغريب والسلافية)، فبينما قدم (بيوتر تشاداييف) صدمة فكرية عبر تساؤلاته حول من هي روسيا وعزلتها، ومحاولاته للإيحاء بضرورة الخاق بركب الحضارة الاوربية، ليتراجع بعد ذلك عن افكاره ويمنح روسيا مكانتها المميزة، تحمل لواء الرسالة لحل مشاكل

الانسانية بضمها اوروبا، ليلور تياراً ثالثاً توفيقياً. يظهر (نيكولاي دانيلفسكي) منتقداً ورافضاً لطرح (تشاداييف) ليكون منظراً للخصوصية الروسية بنمطها السلافي الذي صاغ نظرية الانماط الثقافية وتشكيل الاتحاد السلافي، لينح الدولة درعاً فكرياً يحمي استقلالها الحضاري المتميز.

اهمية الدراسة

تخطى الدراسة بالقيمة العلمية والعملية من خلال بلورة ما تبناه الفكر السياسي الروسي برؤاه النظرية والممارسة الفعلية لسياسة الدولة الروسية وتعزيزه كعقيدة سياسية تطبيقية من قبل الحاكم الروسي، فالدراسة لا تسعى لعرض اراء المفكرين السياسيين فقط، بل قصدت (رصد وبيان) اهمية قدرة الحاكم على صياغة الهوية الروسية واعادة تشكيلها بمراحل الدولة القديمة والمعاصرة من القمة باتجاه القاعدة، مع تحليل امكانيته في توظيف الافكار السياسية لبلورة عقيدة سيادية رسمية للدولة توفق بين متناقضات التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية، فضلاً عن بيان المرحلة العابرة التي فشلت في اعتماد التوفيق المذكور. واثناء المكتبة السياسية لسد النقص في الدراسات العربية التي تعالج الفكر السياسي الروسي من منظور (نظري وتطبيقي) يربط بين مجموعة من المتغيرات (الفكر السياسي، ارادة الحاكم، الهوية الروسية).

اهداف الدراسة

تبلور اهداف الدراسة في التعرف على قدرة الحاكم الروسي ودوره في صياغة هوية الدولة بدءاً من تأسيسها ولغاية مرحلتها المعاصرة، استناداً للإمكانيات التي تؤهله لذلك، لكونه الموجه والقائد لمؤسسات الدولة وشعبها، بدراسة فكرية سياسية. وابرز اهم التيارات الفكرية لتشكيل الهوية الروسية بتوجهاتها المتعارضة والتوفيقية، وارادة الحاكم بالمواثمة ما بين (الاصالة والحداثة) لصالح منجزات الدولة وسيادتها لتحقيق قوة الدولة واستقرارها. والتحقق من كون هوية الدولة والشعب، تُشكل وتصاغ من قة هرم السلطة باتجاه القاعدة الشعبية.

إشكالية الدراسة

تتمحور اشكالية الدراسة حول (هندسة الهوية الروسية في الفكر السياسي) وتحولاتها بين التأسيس التاريخي والصراع الفكري السياسي ودور الحاكم المؤسس بين كلاهما، ويمكن بلورتها في التساؤل الرئيس الاتي: (كيف استطاعت الارادة السياسية للحاكم بمرجعياته الفكرية، صياغة هوية روسية عبر مراحلها المختلفة، وما هو دور التحول من التأسيس الوجودي في مرحلة ما قبل بطرس الاكبر الى الصراع الفكري السياسي بين التيارات اللاحقة في بناء عقيدة سيادية فاعلة). وعلى ضوء هذه الاشكالية انبثقت تساؤلات فرعية ومنها:

١- الجذور والتأسيس: كيف ساهمت مرحلة

التخلص من سيطرة المغول (عهد ايفان الثالث) بمرجعياته الفكرية السياسية، في وضع اللبنة الاولى للهوية الروسية كضرورة لوحدة الدولة، وما هو الدور المحوري للكنيسة الأرثوذكسية في اضعاء الشرعية على هذا البناء الناشئ.

٢- مرحلة التحول والصراع: كيف ادت

اصلاحات بطرس الاكبر نحو التغريب الى نشوء تيارات فكرية متصادمة (تغريبية وسلافية)، وكيف انتقلت الهوية من الضرورة الى السجال الايديولوجي.

٣- الدور التوفيقي للحاكم: الى أي مدى نجح الحاكم

في استثمار اطروحات المفكرين (تشاايف ودانيلفسكي أنموذجاً) لدماج التناقضات الفكرية في نموذج هوياتي يخدم قوة الدولة واستقرارها.

٤- الامتداد والشرعية السياسية: كيف انعكست

هذه المراحل التاريخية على استدامة الهوية الروسية، وكيف تظهر هذه الجذور في بنية القرار السياسي الروسي المعاصر، كأداة لتحقيق الاجماع الوطني وتعزيز السيادة.

فرضية الدراسة

تنطلق الدراسة من فرضية مفادها: (ان نجاح الارادة السياسية للحاكم في صياغة هوية روسية مستدامة وبناء عقيدة سيادية فاعلة، ارتبط تاريخياً ومعاصراً بمدى قدرته على توظيف المواءمة الاستراتيجية بين التيارات

السياسي الروسي، فضلاً عن الخاتمة متضمنة الاستنتاجات.

المبحث الأول

جذور الهوية الروسية والعوامل الدافعة لتأسيسها واعادة تشكيلها

ان دراسة التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية وتحديد دور الحاكم في صياغتها، لا ينضبط او يستقيم دون الغوص في مفاصل تاريخ الدولة الروسية السياسي، ولكونه تاريخ يتسم بالمدى والاتساع الزمني وتنوع مساراته، فقد تبين لنا من الانسب الارتكاز على حقتين تاريخيتين بارزتين ومؤثرتين، هما الاكثر قدرة على تفسير بنية تأسيس الهوية الروسية واعادة تشكيلها. تمثلت الاولى في الحقبة التأسيسية التي وضعت لبنات تأسيس الهوية الروسية من خلال التخلص من حكم المغول وسيطرته في عهد ايفان الثالث وما تلاه من حكام وفق العوامل الداعمة بتشكيل الهوية المذكورة، والثانية تمثلت بعهد بطرس الاكبر التي شكلت اعادة صياغة شاملة للهوية الروسية بحكم العوامل الاصلاحية في داخل روسيا وخارجها في عهد الحاكم المذكور، وهذا الاختيار لا يتم عن اختزالاً للتاريخ، بقدر ما هو منظور منهجي على المراحل التاريخية التي تحولت فيها الدولة الروسية الى ميدان لصناعة الهوية وتحديد اتجاه الفكر الانساني والسياسي على حد سواء.

الفكرية السياسية الفاعلة والموجهة لتشكيل الهوية الروسية وتفاعلاتها المتناقضة، في حين ادى الانحياز الراديكالي لاحد هذه التيارات الى تعميق الصراع الفكري السياسي واهتزاز استقرار الدولة وضعف سيادتها).

منهجية الدراسة وهيكلتها

اعتمدت الدراسة بشكل رئيسي على المنهج التحليلي بوصفه المنهج الملائم لتفكيك التيارات الفكرية السياسية المؤثرة في تشكيل الهوية الروسية، والوقوف على مسارات واتجاهات القرار السياسي الروسي المعاصر. وتكمن فائدة المنهج التحليلي للبحث في قدرته على الانتقال من مجرد الوصف والسر السطحي للظاهرة، الى مرحلة التفسير الفكري السياسي والربط السببي بين الموروث الفكري السياسي والواقع العملي للسيادة الروسية وقرارها السياسي. وفي اطار هذا المنهج، ولغرض الاحاطة بأبعاد الدراسة، استند التحليل الى اسلوب تتبع التاريخي للوقوف على الجذور الاولى لتشكيل الهوية الروسية وسياقها التكويني، فضلاً عن اجراء المقارنات المنهجية اللازمة بين المتناقضات الفكرية والمراحل الزمنية المختلفة لبيان اوجه التباين والتشابه وتحولات العقل السياسي الروسي. قسمت الدراسة على مبحثين وعدة مطالب لكل مبحث تضمن المبحث الاول: جذور الهوية الروسية والعوامل الدافعة لتأسيسها واعادة تشكيلها، والمبحث الثاني: انواع التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية وتمثلاتها في العقل

المطلب الاول: العامل التاريخي- العسكري

تمكنت امارة موسكو في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) من احكام قبضتها على مجموعة من الخانيات التي كانت تحت حكم وسيطرة المغول. انتهت تبعية موسكو للمغول وتحمرت من سيطرتهم، بفعل سياسات ايفان الثالث لحكمته وامتلاكه فنون الحرب والدبلوماسية ولكونه رجل دولة رفيع المستوى، الامر الذي مكّنه من تحرير الاراضي الروسية من قبضة المغول عام ١٤٨٠، وتحول نوع سياسته من الدفاعية الى الهجومية نتيجة لضعف حكم المغول آنذاك. وتم اخضاع الامارات الروسية المجاورة لأمارة موسكو لسيطرة الاخيرة، وكان ذلك بفعل احد السياستين، اما بالقوة او بعقد اتفاقيات مع امرائها ونتيجة لذلك تحولت سياسته من سياسة محلية الى سياسة قومية، واعترف له بلقب "حاكم كل روس" عقب تنازل الكسندر امير لتوانيا عن اراضي الامراء الذين انتقلوا بتبعيةهم الى موسكو بموجب الحرب التي شنها ايفان الثالث على الكسندر، وفي عام ١٤٩٤ عقدت معاهدة بين الدولتين. وتجدر الاشارة الى ان ايفان الثالث بالإضافة الى اللقب المذكور اعلاه كان يدرج في الوثائق الرسمية باسم "الامير الكبير لكل روس" و "قيصر عموم روس". كما واطلق عليه لقب "ايفان العظيم" نظراً للإنجازات التي حققها آنذاك، وتعاطف

الشعب مع موسكو والتفافه حول اميرها، الامر الذي ادى الى زيادة مكانته، لدرجة ان كتابات ذلك العصر اطلقت عليه تسمية "قيصر روسيا"^١. سار فاسيلي الثالث (١٥٠٥-١٥٣٣) على نهج والده ايفان الثالث، حين تولى الحكم بعد وفاة ابيه عام ١٥٠٥، وثما الوعي القومي عند الروس وعاشوا في دولة موحدة واسعة مترامية الاطراف، وحل اسم روسيا بالتدريج محل التسمية القديمة روس، وهو اسم البلد الذي يسكنه الشعب الروسي^٢. واصبح لقب القيصر جزءاً من الهوية الروسية للدولة في عهد ايفان الرابع (ايفان الرهيب) (١٥٣٣-١٥٨٤) الذي حوله الى صيغة رسمية عام ١٥٤٧ عندما توج كأول قيصر في روسيا بشكل علني ورسمي مما منح الكيان السياسي طابعاً امبراطورياً جديداً وادخل اللقب في البنية القانونية والدينية للدولة، وبذلك ارتفع شأن السلطة المركزية في الدولة الروسية^٣.

بناءً عليه يتبين ان الانجازات التاريخية، السياسية والعسكرية التي حققها ايفان الثالث في عهده، مكنته من صياغة هوية سياسية للشعب الروسي، فن الناحية العسكرية يعد انتهاء تبعية موسكو للمغول عام ١٤٨٠ نقطة تحول في استقلال الروس. ومن الناحية السياسية اصبحت امارة موسكو قلب الدولة الروسية الموحدة ونواتها، وبأثر تحويل سياسته من الدفاعية الى الهجومية

١ هاشم صالح التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث: قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها، (بغداد، دار ومكتبة عدنان، ٢٠١٥).

ص ٧١-٨٢، ص ٨٧-٨٨.

٢ المصدر السابق ص ٨٣، ص ٨٧.

٣ المصدر السابق ص ١٠٨.

وثبتت هوية الدولة والشعب الروسي بكونها "هوية سياسية قيادية فوقية هجومية توسعية". وعلى هذا النحو تربط بين الشرعية السياسية للسلطة المركزية وبين اعتراف الشعب وقبوله بها، باعتبارها عنصراً أساسياً من الذاكرة والانتصار الجماعي.

المطلب الثاني: العامل السياسي- الديني

بعد انحذار وزوال امبراطورية روما الثانية المتجسدة بـ (بيزنطة/ القسطنطينية) عام ١٤٥٣ على يد العثمانيين، وضعت روسيا نفسها لتأدية دور روما الثالثة، وتوجهت انظار الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية الى القيصر الروسي، "وكأنه الخليفة الطبيعي للإمبراطور البيزنطي"، سعت الكنيسة الروسية الى وضع مهمة حماية الارثوذكس في روسيا والعالم على عاتق قيصر روسيا، وفقاً لما ورد انفاً يتضح الارتباط بين الاحداث وتاريخ حدوثها وتسلسلها، الامر الذي يقودنا الى تمييز موقع العامل (الديني والسياسي) وإيهما سبق من الآخر، في تشكيل الهوية الروسية ولييان مهمة الحاكم في صياغتها وتكوينها معاً، نشير الى ما يأتي:

اولاً: زواج ايفان الثالث من ابنة اخ اخر الاباطرة البيزنطيين:

كان الزواج من تخطيط وتدير البابوات الكاثوليك في روما، بهدف إعادة توحيد الكنيستين: الكنيسة الشرقية

ثبت مكاتها بين الامارات المجاورة، ومن الناحية الدبلوماسية نتج عن تحالفاته وعقد المعاهدات مع امراء الامارات الاخرى ترسيخ سلطته بطرق مختلفة ليس عن طريق القوة فقط وانما بالتحالفات ايضاً، اما من الجانب الرمزي بدلالة الاعتراف له من قبل الاخرين بكونه "حاكم كل روس"، وتدوينه في الكتابات الرسمية بلقب "قيصر عموم روس"، كان بمثابة اقرار رسمي بهوية قومية جديدة للشعب الروسي. فالإنجازات التي حققها ايفان الثالث لم تكن مجرد انتصارات عسكرية، بل اسست لهوية سياسية وقومية جديدة للشعب الروسي. الامر الذي يقودنا الى استنتاج مفاده ان الهوية الروسية في هذه المرحلة لم تشكل من القاعدة الشعبية بل ولدت من الاعلى بفعل الحاكم، اذ رسخها ايفان الثالث عبر انجازاته العسكرية والسياسية والدبلوماسية، وطرق قيادته وحكمه، مما جعل السلطة المركزية هي المحرك الجوهرى لبناء الهوية السياسية الروسية.

على الرغم من تأسيس الهوية الروسية وبنائها في عهد ايفان الثالث من الاعلى، الا انها لم تكن مفروضة او غريبة عن تطلعات الشعب الروسي وثقافته وهومو واهدافه في تلك المرحلة التاريخية، للنتائج التي حصل عليها، المتجسدة بشعور التحرر والانتصار بعد قرون من السيطرة المغولية وتوسيع النفوذ الروسي، وخضوعه للحكم المركزي المقتن بالعوامل انفاً، الامر الذي نُظر اليه باعتباره ارث تاريخي ومصدر لانتصارات قومية رسخت

٤ سهيل فرح، الحضارة الروسية اسئلة الهوية والآخر العربي، (سورية، دار علاء الدين، ٢٠١٠)، ص ٢٠.

روسية إمبراطورية، ترى نفسها وريثة حضارة بيزنطة وحامية الإيمان الأرثوذكسي، وفي الوقت ذاته قوة سياسية مميزة عن الغرب.

ثانياً: اعتماد رموز الامبراطورية البيزنطية بعد سقوطها في موسكو:

جذب إيفان الثالث أشهر الفنانين الإيطاليين، والمعماريين والمهندسين وكلفهم ببناء كنيسة أساسية في موسكو وهي كاتدرائية الظهور في الكرملن، ووجه تعليماته لبنائها بأن يكون وفق التصميم السردالي، المناظر لكاتدرائية الظهور في فلاديمير العائدة للقرن (الثاني عشر) الميلادي^٦. واعتمد شعار النسر ذو الرأسين وهو شعار الامبراطورية البيزنطية^٧.

إن بناء كاتدرائية الظهور في الكرملن بأمر من إيفان الثالث وفق الطراز البيزنطي-الروسي القديم يعكس محاولة واعية لترسيخ موسكو كامتداد للإمبراطورية البيزنطية بعد سقوطها. فالاعتماد على رموز المعمار الأرثوذكسي لم يكن مجرد اختيار جمالي، بل إعلان سياسي-ثقافي بأن موسكو هي الوريثة الشرعية لبيزنطة وحامية الإيمان. هذا الدمج بين الرموز الدينية والشرعية الإمبراطورية ساهم في تشكيل الهوية الروسية، التي

الأرثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية الغربية وكانوا يأملون أن يؤدي الزواج إلى تقريب موسكو من روما دينياً وسياسياً، في الوقت نفسه كان إيفان الثالث يسعى لتوطيد مكانته في الحكم من خلال التقارب مع البابوية والتحالف معها، الأمر الذي سيجعله نظيراً ومساوياً للأسر الحاكمة في أوروبا الغربية، وعلى هذا الأساس وافق إيفان الثالث من الزواج بصوفيا باليولوغ عام ١٤٧٢. إلا أن هدف البابوات لم يتحقق بوحدة الكنيستين، إذ بقيت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية محافظة على استقلالها بفعل إرادة الكنيسة الأرثوذكسية، ومع ذلك حقق الزواج المذكور نتائج إيجابية منها تعزيز علاقات موسكو بالغرب ولاسيما إيطاليا.

إن زواج إيفان الثالث من صوفيا باليولوغ عام ١٤٧٢ مثل نقطة التقاء بين المجالين أو العاملين (السياسي والديني) في مشروع بناء الهوية الروسية. فبينما أراد البابوات توحيد الكنيستين، حافظت الكنيسة الروسية على استقلالها، مما عزز هويتها الأرثوذكسية. في المقابل، استغل إيفان الزواج ليكسب شرعية سياسية ويضع موسكو في مصاف الأسر الأوروبية الكبرى، وفي الوقت نفسه ليؤكد وراثته روسيا للإرث البيزنطي. هذا التداخل بين الدين والسياسة ساهم في ترسيخ هوية

٥ هاشم صالح التكريتي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧-٩٨.

٦ ايناس سعدي عبد الله، اسامة عدنان يحيى، تاريخ روسيا الديني من الوثنية الى المسيحية، سلسلة اشور الاساسية ٣، (العراق-بغداد، اشور، ٢٠١٩)، ص ٨٧.

٧ هاشم صالح التكريتي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨.

رأت نفسها حضارة مميزة عن الغرب، تحمل رسالة روحية عالمية وتستند إلى إرث بيزنطي متجدد. كما أن اعتماد شعار النسر ذو الرأسين بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية كان خطوة رمزية عميقة في تشكيل الهوية الروسية، لأنه لم يكن مجرد زخرفة أو شعار سياسي، بل إعلان عن وراثة موسكو للشرعية البيزنطية.

ثالثاً: الفكرة السياسية واللاهوتية موسكو (روسيا) روما الثالثة:

تُعتبر نظرية "موسكو روما الثالثة"، التي صاغها فيلوثيوس، أحد رهبان دير بسكوف إيعازر، قبل خمسة قرون، من أبرز الاستعارات في التاريخ الروسي. وقد نُظر إلى هذا المفهوم، في أوقات مختلفة وحتى هذا اليوم، على أنه مفتاح لكشف لغز الشخصية الوطنية الروسية، وتجسيد لعداء روسيا التاريخي للغرب، ورؤية روحانية لرسالتها الخلاصية، وعقيدة للهيمنة العالمية للإمبراطورية الناشئة^٨. كانت موسكو الدولة الأرثوذكسية الوحيدة ذات السيادة بعد عام ١٤٥٣^٩.

جسدت نظرية "موسكو روما الثالثة" دوراً محورياً في تشكيل الهوية الروسية من خلال أبعادها الدينية والسياسية والثقافية. فبعد عام ١٤٥٣، حين أصبحت

موسكو الدولة الأرثوذكسية الوحيدة ذات السيادة، ظهرت كحامية للإيمان وورثة شرعية لروما والقسطنطينية. هذا الدور التاريخي منحها شرعية إمبراطورية ورسالة خلاصية، ورثت في الوعي الروسي تصوراً عن الذات باعتبارها حضارة مميزة في مواجهة الغرب. وهكذا تحولت النظرية إلى عنصر بنيوي في الهوية الروسية، يجمع بين الدين والسياسة والثقافة في إطار واحد.

عند تحليل العامل السياسي والديني وملاحظة مدى تأثيره على صياغة وتشكيل الهوية الروسية آنذاك من خلال الحاكم الروسي في تلك المرحلة التاريخية يظهر لنا ما يأتي:

١- ان استقلال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لم يكن نتيجة قرار فردي من إيفان الثالث، بل جاء ثمة إصرار رعاة الكنيسة على رفض التماهي مع الكنيسة الكاثوليكية الغربية.

٢- استفاد الحاكم الروسي آنذاك من الموقف الديني الرافض للتماهي مع الكنيسة الغربية ليعزز مشروعه السياسي، إذ منحته استقلالية الكنيسة شرعية إضافية باعتباره حامياً للإيمان

8 Дмитриев Михаил Владимирович, Гурьянова Наталья Сергеевна, Буланин Дмитрий Михайлович, Сиренов Алексей Владимирович, and Кореневский Андрей Витальевич.

"Теория «Москва — Третий Рим»: Тексты и контексты" Studia Slavica et Balcanica Petropolitana, no.

2 (34), 2023, c.67.

9 Там же. c.6٨.

روحية، تجمع بين الشرعية الدينية والطموح السياسي.

المطلب الثالث: اعادة تشكيل الهوية الروسية في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) من خلال عامل الداخل

واجهت الهوية الروسية، في المدة التي سبقت عهد بطرس الأكبر التي تقدر بحوالي قرن من الزمن من نهاية عهد ايفان الرابع، مصير شاق تطلبت الحاجة الملحة اعادة تشكيلها. حيث ساهم "زمن الاضطرابات" كصدمة هددت سيادة الدولة، الى الانشقاق الديني الذي صدع وحدة الدولة الروحية وصولاً الى التأثير الغربي، كعوامل دافعة لإعادة تشكيلها، فرضتها الاحداث المذكورة لتبلور نتيجة مفادها ان النظام الروسي القديم بات عاجزاً عن حماية الدولة او المحافظة على تماسكها، مما جعل اصلاحات بطرس الأكبر عوامل مؤثرة في اعادة تشكيل الهوية الروسية بكونها ضرورة تأريخية لمواجهة التآكل الداخلي والتهديد الخارجي^{١٠}.

لم تكن اصلاحات بطرس الأكبر اجراءات ادارية او عسكرية عابرة، بل كانت ادوات سياسية لإعادة هندسة الهوية الروسية، وشكلت العوامل الداخلية لإعادة تشكيل الهوية الروسية بما يأتي:

الأرثوذكسي ووريثاً لبيزنطة. وفي الوقت نفسه، وظّف الزواج من صوفيا باليولوغ واعتماد الرموز البيزنطية ليؤكد مكانة موسكو كإمبراطورية ناشئة تضاهي القوى الأوروبية.

٣- تداخلت الإرادة الدينية مع مشروع الحاكم السياسي مما أسهم في صياغة هوية روسية جديدة، هوية إمبراطورية-روحية ترى نفسها وريثة حضارة بيزنطة وحامية العقيدة، وفي الوقت ذاته قوة سياسية مميزة عن الغرب.

٤- لم يقتصر موقف الكنيسة الأرثوذكسية على تعزيز مكانة الحاكم الدينية من خلال معاضدتها له ودفعه في تبني صورة "حامي الأرثوذكسية" داخل روسيا وخارجها، بل منح مشروعه السياسي شرعية إضافية وأشاع شعوراً بالفخر الإمبراطوري بين الروس. ومع مرور الوقت، أصبح هذا التصور جزءاً من الهوية الروسية، حيث ارتبطت شرعية الدولة بقدرتها على حماية العقيدة الأرثوذكسية. ومن ثم، برزت روسيا باعتبارها صاحبة الحق في التدخل في شؤون المجتمعات الأرثوذكسية خارج حدودها، وهو ما رتّب فكرة رسالتها العالمية وأكّد خصوصيتها الحضارية في مواجهة القوى الأخرى. معاضدة الكنيسة للحاكم لم تكن مجرد دعم ديني، بل أداة سياسية لصياغة هوية روسية إمبراطورية-

١٠. سليم قبعين، تاريخ ال رومانوف، (القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢)، ص ٣٣-٣٥.

أولاً: (إعادة هندسة المجتمع والذات الروسية):

تحولت روسيا في عهد بطرس الأكبر الى "دولة مستغربة" وهذا التحول لم يكن اختياراً شعبياً بقدر ما كان قراراً سياسياً مثله ارادة الحاكم المتجسدة بشخصية بطرس الأكبر، الذي استهدف تغيير هوية المجتمع من الداخل، اذ ادرك بطرس ان بناء دولة قوية يستلزم خلق انساناً جديداً يقطع صلته بالماضي الروسي القديم. ان "عملية اورية روسيا" استحضرت معها مجموعة من الافكار الجديدة (السياسية والدينية والاجتماعية)، ادركها الحكم والطبقات العليا في المجتمع قبل ان تصل الى عامة الناس. ومن نتائجها حدوث تصدع بين قمة المجتمع وقاعدته^{١١}.

لم يقتصر مشروع بطرس الأكبر على الإصلاح الإداري والعسكري، بل امتد ليعيد صياغة الهوية الروسية ذاتها، حيث تداخلت الأصالة الدينية-الثقافية مع الانفتاح الغربي لتنتج هوية مزدوجة، ترى روسيا نفسها قوة حضارية فريدة تجمع بين الإرث البيزنطي والحداثة الأوروبية. فالدولة المستغربة تعني جذب عادات وتقاليده الدول الاوربية ومحاوله غرسها في المجتمع الروسي، فضلاً عن الانتاج والصناعة والعلوم والثقافة الاوربية.

وفي اطار البيئة الداخلية للتغيير، تجسد مشروع بطرس الأكبر لإعادة هندسة المجتمع والفرد الروسي في منظومة من المبادئ والقيم التي عمل على غرسها في الروح والمجتمع الروسيين، نبرز اهمها واكثرها تأثيراً على اعادة تشكيل الهوية الروسية وكما يلي:

١- العامل الثقافي (مهاجمة الهوية البصرية): القائمة على اللباس والمنظر، اذ على اثر زيارات بطرس الأكبر في الدول الاوربية آنذاك وتأثره بما شاهده ورأه، عند عودته الى روسيا منع الروس من ارتداء الملابس الواسعة التي تعيق الحركة وتجعلهم ليسوا اوريين^{١٢}. فطلب من رعاياه ارتداء الملابس الاوربية وحلق لحاهم واشرف بشكل خاص بنفسه على تنفيذ اوامره وكان يتوعدهم بالعقاب القاسي ان لم يتم تنفيذ اوامره وما طلبه منهم. وعلى اثر تنفيذ اصلاحاته دخل بطرس في مواجهة وصراع مع المحافظين، ونظر اليه الطرفان المؤيدين والخصوم على انه دخيل على الروح الروسية^{١٣}.

من خلال اصلاحاته الثقافية هدف بطرس الى كسر قالب الهوية الروسية القديمة، حيث شكلت اصلاحاته القسرية صدمة ثقافية للروسيين بغية غرس الشعور لدى الفرد الروسي

١١ جورج فرنادسكي، تاريخ روسيا، ترجمة: عبد الله سالم الزليقي، (ليبيا، دار الكتب الوطنية، ٢٠٠٧)، ص ١٥٣.

١٢ سليم قيعين، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣، ٦٠.

١٣ جورج فرنادسكي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.

بأنه جزء من أوروبا "العالم المتحضر"، والنتيجة تحول المظهر من "شرقي تقليدي" الى "غربي حديث" بقرار سياسي مفروض قسراً.

٢- العامل الديني (تأميم الكنيسة وانشاء المجمع الكنسي المقدس): بعد ان تمكن بطرس الاكبر من كسر العزلة الثقافية انتقل لتقويض المرجعية الدينية التقليدية وتحجيمها. فقد الغى بطرس الاكبر البطريكية ورفض السماح بانتخاب بطريك جديد سنة ١٧٠٠. الا ان ذلك لا يعني ان بطرس كان ملحداً، لكن ايمانه لم يكن روسياً تقليدياً، واصبح تأثره بالحركة اللوثرية على افكاره السياسية بشأن الكنيسة وتحجيمها، فأعتقد ان الكنيسة يجب ان يعاد ترتيبها وفق النموذج الاوربي وعلى المبدأ الاوربي الجوهري من حيث ان "دين الحاكم هو دين الدولة". اسس المجمع الكنسي المقدس وهو عبارة عن ادارة عليا تدير الكنيسة، خاضع لإشراف موظف مدني يعينه القيصر (الامبراطور) وتابع له. ولم تكن المعارضة المتمثلة بـ (الكنيسة الارستقراطية والفلاحين) منظمة بشكل يسمح لها قيادة ثورة على اصلاحات بطرس التي غيرت الهوية الروسية آنذاك^{١٤}.

ان الاجراءات التي قام بها بطرس الاكبر في مجال السيطرة على الكنيسة وسلطتها واستقلالها، كان الهدف منه القضاء على ازدواجية السلطة (الدينية - السياسية)، حيث انه رأى بالكنيسة منافس له في توجيه عقول الشعب مما حتم عليه، الحاق الكنيسة بجهاز الدولة والقضاء على استقلالها. فتحول الدين كنتيجة لذلك من "مرجعية عليا للهوية" الى اداة تخدم الامبراطورية، واصبح القيصر هو المرجعية الوحيدة والنهائية.

٣- العامل الاداري (نظام الرتب- الولاء للدولة): تمكن بطرس الاكبر عقب كسر العزلة الثقافية من خلال المظهر الخارجي، وانتقاله لتقويض الكنيسة كمرجعية دينية تقليدية وتأسيس المجمع المقدس بدلاً عنها، الامر الذي خلق فراغاً في الولاء ملئه لاحقاً بنظام الرتب الاداري. حيث اقر في عام ١٧٢٢ جدول الرتب الذي حول مبدأ الوراثة للأرستقراطية والبيوار الى حق الاستحقاق وفق الكفاية الشخصية فقط، "واستبدلت نبالة الولادة بنبالة الخدمة" الامر الذي انتج عدم رضى الارستقراطية عن هذه الاصلاحات^{١٥}.

١٤ المصدر السابق، ص ١٦٠-١٦١.

١٥ المصدر السابق، ص ١٦٠.

بالانعزال بل بالتناظر، فكانت حروبه وتوسعاته الجغرافية هي الوسيلة لفرض هذه الهوية الجديدة على الساحة الدولية آنذاك. ولغرض التعرف على الآلية التي مكنت بطرس الاكبر من تحقيق ذلك واثباته واقعاً وتأثيره على الهوية الروسية نشير الى الآتي:

١- بناء الاسطول والبحث عن المياه الدافئة (١٦٩٥-١٦٩٦): بدأ بطرس الاكبر ببناء اول اسطول روسي حقيقي لمواجهة العثمانيين في حملات آزوف، وكان شغله الشاغل مصلحة الدولة الروسية التي هي في نظره اعلى من مصلحة الشعب الروسي. وكانت اصلاحاته وبناء القدرات الحربية والعسكرية من ضمن اهم اهتماماته التي زرعها في رعاياه انبعثاً من ذاته المحفزة لهم، بالإضافة الى الاصلاحات الاخرى في مجال العلوم والتقنية والادارية الاوربية^{١٦}.

مثل الاسطول في هذه المرحلة من عمر الدولة الروسية اداة للانفتاح، فالحاكم قرر تحويل الهوية الروسية من هوية قارية منغلقة على الغابات والبراري الشاسعة الى هوية بحرية تتطلع للتواصل مع العالم. بناء الاسطول منح المعنى للهوية الروسية بكسر جمودها وتحويل الفلاح الروسي الى بحار محترف بإرادة سياسية عليا.

ان الغاء مبدأ الوراثة في المكانة الاجتماعية واحلال الخدمة (خدمة الدولة والجيش) محله، لغرض منح لقب نبيل، وليس لمن ولد من عائلة ثرية، الامر الذي انتج اعادة تعريف الانسان الروسي بوصفه خادماً للدولة، والهوية هنا ارتبطت بمعايير مختلفة عما سبق، ارتكزت على العمل والكفاءة والولاء للقائد وليس للدم او النسب. وعلى ذلك اصبحت الدولة هي الموجه الوحيد لهوية الفرد الروسي روحياً ومادياً.

ان هذه العوامل الثلاثة المستخرجة من اصلاحات بطرس الاكبر (الثقافية، الادارية، الدينية)، اثبتت ان بطرس الاكبر تعامل مع الشعب بكونه "مادة خام" اعاد تشكيله وفق رويته السياسية وافكاره الغربية، فلم تكن الهوية الروسية الجديدة في عهده خياراً شعبياً، بل كانت نتاجاً لإرادة الحاكم الذي قرر ان تكون الدولة مستغربة وعصرية بالقوة.

المطلب الرابع: اعادة تشكيل الهوية الروسية في عهد بطرس الاكبر من خلال عامل الخارج (الموقع الامبراطوري وصناعة هيبية روسيا الدولية)

أن توجهات بطرس الاكبر نحو التغريب لم تقف عند حدود التقليد الثقافي، بل كانت رؤية استراتيجية لبناء سياسة كبرى هدفت الى جعل روسيا عضواً في سلك الامم الاوربية. ادرك الحاكم ان الهوية لا تبنى

١٦ المصدر السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

٢- اندلاع حرب الشمال الكبرى (١٧٠٠):

دخلت روسيا في حرب مصيرية مع السويد آنذاك من أجل تحقيق السيطرة على بحر البلطيق وخلق نافذة بحرية تطل على أوروبا الغربية، إذ كان بطرس الأكبر يرى أن المهمات الوطنية العاجلة تستدعي حماية سيادة روسيا في المواجهة والصراع المرتقب بين القوى العالمية وتحقيق المنفذ إلى البحر وتعميق الاتصالات مع أوروبا وتحويل روسيا إلى دولة عالمية. وكتب قائلاً في خضم الانتصار الذي حققه في تلك الحرب "إنني لا أعمل من أجل نفسي بل لمنفعة الدولة في المستقبل"^{١٧}.

شكلت الحرب مع السويد والإرادة السياسية الروسية بقيادة بطرس الأكبر، خلق نافذة بحرية على أوروبا الغربية، فلم تكن مجرد نزاع حدودي بل حرباً من أجل الهوية. إذ أراد بطرس أن يؤمن مكانة لروسيا في مجموعة الدول الأوروبية الكبرى والقوية. مؤكداً أن الهوية الروسية الجديدة في عهده لا تقبل إلا بالتوازن والمساواة مع القوى الكبرى وهو ما يعزز فرضية أن الحاكم هو من يرسم الطموح القومي للدولة. والانتقال بروسيا من كونها دولة برية إلى قوة بحرية. فهذه الإرادة السياسية الحربية أعادت تعريف هوية

الدولة الروسية أمام المجتمع الدولي من "امبراطورية شرقية برية" إلى "قوة أوروبية بحرية حديثة".

٣- تأسيس مدينة سانت بطرسبرج (عاصمة روسيا الجديدة) (١٧٠٣): في خضم الحرب مع السويد أمر بطرس ببناء عاصمة جديدة لروسيا على أراضٍ منتزعة من السويد واطلق عليها الاسم المذكور وكان تشييدها في مستنقعات خليج فنلندا. علماً أن ذلك كان يتخلله استياءً شعبياً بسبب تضحيات الناس المجبرين على تقديمها بسبب الحاجة إلى المال والرجال لإمداد الجيش بالموثّق والمجندين الإلزاميين، وقامت سلسلة من الثورات في الداخل الروسي بالوقت الذي تمكن بطرس من انحادها ولكن بصعوبة كبيرة^{١٨}.

أن بناء مدينة روسية على أراضٍ غير روسية بفعل الاستحواذ عليها نتيجة للانتصار في حرب الشمال المذكورة انقضاءً، جسّد قّة الإرادة السياسية لخلق واقعاً جغرافياً جديداً للهوية، فالعاصمة الجديدة كانت بمثابة بوابة مطلّة على أوروبا، بقرار من الحاكم لتكون عوضاً عن هوية موسكو القديمة والمنغلقة.

١٧ فيكتور بوغانوف، حياة بطرس الأكبر، ترجمة: خيرى الضامن، (موسكو، دار التقدم، ١٩٩٠)، ص ١٥٤ وكذلك ص ١٨٧-٢١٥.

١٨ جوردرنادسكي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦-١٥٧. وكذلك المصدر السابق ص ٢١٢.

٤- معركة بولتافا (منطقة في أوكرانيا) (١٧٠٩):

انتصر بطرس الأكبر بشكل هائل وكبير على ملك السويد كارل الثاني عشر في هذه المعركة، وهو النصر الذي شكل صدمة لأوروبا. وكان يوجه خطبه إلى الجنود والضباط في ساحات القتال بأن الأمر المهم هو "الدفاع عن الوطن وحماية شعب عموم روسيا"، والحرب ليس من أجل بطرس ولكن من أجل الدولة التي عهد بها إلى بطرس من أجل الشعب والوطن. وضعت نتائج تلك الحرب حداً فاصلاً بين ما كان قبلها وما حدث بعدها على مسرح العمليات الحربية. وتلاشى الازدراء الذي كان موجهاً من أوروبا إلى روسيا على اثر الانتصار الذي حققه بطرس الأكبر في معركة بولتافا، وحل محله صدمة واحترام ممتزجان بالخوف من قدرة روسيا القتالية. وتحولت السخرية التي كانت توجه من بلاطات أوروبا تجاه الدبلوماسيين الروس إلى الاهتمام الكبير بهم. لكن الآخرين كقيصرهم، اتسمت تصرفاتهم بالهدوء والريانة، مقرونة بإحساس عميق بالكرامة الشخصية والاعتزاز بالفخر الوطني^{١٩}.

يمكننا هذا الانتصار قدرة الحاكم الروسي على التمييز بين التعلم وتنفيذ ما تعلم منه، ليخلق هويته ويعيد تشكيل هوية رعاياه الروسيين وفقاً لذلك،

فانتقلت الهوية، من طالب يتعلم من الغرب، إلى هوية قوة عظمى تفرض شروطها، هذا الانتصار العسكري اعطى للروس شعوراً بالفخر القومي المرتبط بقوة الحاكم وعظمة الامبراطورية، مما جعل التجنيد والصناعة الحربية والمواجهة والهجوم جزءاً أصيلاً من الهوية الجديدة.

٥- نهاية حرب الشمال وتوقيع معاهدة نيشتادت

(١٧٢١) وعلان الامبراطورية: انتهت الحرب الطويلة والمرهقة التي استمرت لمدة (٢١) عاماً لصالح روسيا بتحقيق نصر كبير. والمعاهدة التي وقعت في نيشتادت بتاريخ ٣٠ اب ١٧٢١ اشهرت السلام الدائم بين السويد وروسيا. فالنصر رجع لدبلوماسية بطرس الأكبر وسياسته الخارجية، لحرب وصفها القيصر بـ "المدرسة ذات المراحل الثلاث". وكان النصر المتحقق لروسيا بصلح نيشتادت ليس فقط على السويد ولكن على كل بلاطات أوروبا بضمنها الدسائس والتفنن في العداء. بتاريخ ٢٢ تشرين الاول من نفس العام منح بطرس الأكبر باسم اعضاء مجلس السينات لقب "ابو الوطن وامبراطور روسيا بطرس الأكبر" وطلب منه ان يتقبله، ووقع النداء المقدم اليه بهذا الخصوص جميع اعضاء السينات التسعة. وبذلك أصبحت روسيا امبراطورية، واصبح قيصرها امبراطور

١٩ فيكتور بوغانوف، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢-٢٧٦.

اصبح مهاباً ومقدراً في الخارج. الامر الذي يدل على ان صناعة الهوية تمت كحلقة من الاعلى باتجاه الاسفل.

في ختام المبحث الاول ومع تأسيس الهوية الروسية في عهدها الاولى المتجذرة ابتداءً من التخلص من سيطرة المغول في عهد ايفان الثالث وما تلاحقه من حكام وقيصرة بتثبيت دعائم الهوية الروسية المركبة، وانتهاءً بإعادة تشكيلها وصياغتها في عهد بطرس الاكبر امبراطوراً بملاحح الهوية المستغربة التي كشفت من سمات تعقيدها المركبة، ودخول الميدان العالمي بروسيا كقوة كبرى. الا ان ذلك لم يكن من دون مقاومة بنيوية، فقد اصطدمت الهوية الامبراطورية الوليدة بجدار من المقاومة الشعبية ورجال الدين الممثلين بالكنيسة حيث رأوا في التغريب انفصلاً واعتراباً عن الذات والروح الروسية الاصلية، وبذلك تكونت هوية روسية مركبة قائمة على اساس دولة امبراطورية حديثة الهيكل ومجتمع تقليدي في جوهره. هذا التركيب الهوياتي المضطرب لم يكن مجرد انقسام ثقافي بل اضحى منطلقاً للصراع الفكري والسياسي الذي سيتفاقم لاحقاً حول ماهية روسيا ومكانتها في العالم، وهو ما سيشكل الاساس الجوهري في المبحث الثاني.

لدولة جبارة هائلة غدت في عهد بطرس في مصاف الدول العالمية الكبرى^{٢٠}.

تجسد العامل الخارجي وفقاً لتحليلنا، لإعادة تشكيل الهوية الروسية في عهد بطرس الاكبر في مرحلته التاريخية المذكورة بذروة الارادة السياسية للحاكم ودوره في صياغتها، من خلال الادوات المستخلصة الاتية:

١- الانتقال الى العالمية بلقب امبراطور، اذ فرض

بطرس بجرائته وقدرته العسكرية ودبلوماسيته في سياسة روسيا الخارجية على اوروبا لغة سياسية جديدة. حيث لم تعد روسيا مجرد قيصرية شرقية بل اصبحت امبراطورية اوربية بقرار سياسي رسمي. فالتغيير في التسمية جسد اعادة صياغة كاملة للهوية ازاء المجتمع الدولي.

٢- تركيز الهوية الجغرافية: عبر تثبيت القدم على بحر البلطيق، وبذلك تحول الفرد الروسي من انسان بري يعيش في عزلة الغابات الى مواطن في دولة بحرية منفتحة، مما يشير الى ان الحاكم لم يغير السياسة فحسب بل غير نمط الحياة والوعي القومي.

٣- اعتماد التغريب: ان الاعتراف الدولي الذي ناله بطرس بعد عقد صلح نيشتادت كان بمثابة شهادة نجاح. فبقدر ما كان الاصلاح قسرياً ومواجهة وصراع مع الداخل والخارج الروسي

٢٠ المصدر السابق، ص ٣٦١-٣٦٣.

المبحث الثاني

انواع التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية وتمثلاتها في العقل السياسي الروسي تعد التغييرات الهيكلية في عهد بطرس الاكبر التي تم تناولها في المبحث الاول بمثابة الميدان الذي انبثقت منه الاسئلة الكبرى للفكر السياسي الروسي آنذاك. ففي حين كانت الدولة تمارس وجودها كإمبراطورية مستغربة في ادواتها، كانت النخب الفكرية تعيد صياغة مفهوم الهوية في ظل هذا الواقع المركب. ولغرض الاحاطة بهذا المشهد الفكري السياسي المتعدد دون تشتيت القارئ بالاستغراق في سرد التفاصيل التاريخية، اتجه التحليل نحو التركيز على النماذج المعيارية الاكثر تجسيدا وتمثيلاً للتيارات الفكرية السياسية الكبرى، وذلك من خلال تسليط الضوء على المنظرين الاوائل الذين وضعوا اسس المرتكزات الفكرية، والتي قامت عليها

بعد ذلك كل المواجهات الفكرية السياسية في روسيا المتعلقة بتشكيل الهوية.

المطلب الاول: التيار التغريبي: (النزعة الليبرالية والعقلانية بيوتر تشادايف أنموذجاً)

افترض التيار التغريبي أن على روسيا أن تسلك المسار الحضاري نفسه الذي سلكته جميع الدول الأوروبية، وصنف عمل بيوتر تشادايف* بأنه أول عمل فلسفي هام في الفكر الروسي المتمثل بـ "الرسائل الفلسفية".^{٢١} كان ممثلي التيار التغريبي يؤمنون بأنه على روسيا ان تتعلم من الغرب، وان تسير في عملية تطورها، وفقاً للنموذج الاوربي، وان يقلدوا التنوير الدنيوي والعلم الاوربي، ولم يكن لهم اهتماماً كبيراً بالدين، بل ان المتدينون منهم كانوا يميلون الى تضخيم وتوسيع مثالب وعيوب الكنيسة الروسية. وفيما يرتبط بالمشاكل الاجتماعية،

* بيوتر ياكوفليفتش تشادايف (١٨٥٦-١٩٩٤): فيلسوف ومفكر سياسي روسي، من أشهر كتاباته "رسائل فلسفية"، و "اعتذار مجنون"، عُد الاب الروحي لتيار التغريبيين ومؤسس الجدل بشأن الهوية الروسية الحديثة، ودورها العالمي في الفكر السياسي الروسي الحديث. امسى تشادايف "مفكراً ممنوعاً"، ولم تُنشر أعماله كاملة إلا في عام ١٩٨٧، أي بعد ١٥٠ عاماً من نشر "رسائله الفلسفية" الاولى التي نشرت عام ١٨٣٦ ينظر: نيقولاى لوسكي، تاريخ الفلسفة الروسية، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: زكي نجيب محمود، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤)، ص ٤٩-٥١. وكذلك ينظر:

Храмов Валерий Борисович. "Первое «Философическое письмо» П. Я. Чаадаева как документ эпохи" Культурная жизнь Юга России, no. 2, 2014, c.10.

21Евлампи́ев Игорь Иванович, and Громова Екатерина Викторовна. "Славянофильство и западничество как формы русского национального самосознания: анатомия конфликта и его результаты" Вестник Русской христианской гуманитарной академии, vol. 20, no. 3, 2019. c.131.

التطور الروحي، بالوقت الذي مدح أوروبا الغربية كنتيجة لأفكار الواجب والنظام والعدالة والقانون التي شكلت لحم الشعب ودمه، هذه المبادئ ليست سيكولوجية غربية بل فيسيولوجية وفق تعبيره. واضحاً في تفكيره التأثير النظامي للكنيسة الكاثوليكية الغربية. بالوقت نفسه وجه نقده المطلق الى روسيا، فهي في رأيه "ليست من الغرب او من الشرق"، ولم تهب روسيا للعالم شيئاً او تقدم فكرة انسانية واحدة^{٢٢}.

عند تحليل فكر تشاداييف السياسي الموجه بخطابه الى المرأة الافتراضية يسمح لنا، بالقول انه كان يقصد الدولة الروسية بنصائحه، حيث برزت المرأة كرمز للهوية الروسية المضطربة التي تفتقد للانضباط. هنا ظهرت العقلانية لدى تشاداييف كضرورة سياسية تبناها التيار التغريبي الروسي بغية صناعة انسان روسي جديد يحترم النظام والقانون والعدالة، وهي دعوة لعقلنة الايمان ليصبح محركاً للبناء الحضاري بدلاً عن الانعزال الروحي. حيث تأثره بنظام الكنيسة الكاثوليكية الغربية ليس على اساس عقيدتها بل كتقنية سياسية لصناعة النظام، كوسيلة وليس كغاية.

ولغرض استخراج الارتباط ما بين العقلانية المسيحية والتربية الروحية مع الليبرالية والعقلانية في فكر تشاداييف السياسي، وجدنا ان خصوصية اطروحة تشاداييف تجلت بعدم الفصل ما بين الميل الليبرالي وما بين الاساس

قدر بعضهم الحرية السياسية بشكل كبير، بينما فضل بعضهم الاخر الاشتراكية في هذا الشكل او ذاك^{٢٣}.

يعتبر بيوتر تشاداييف حجر الزاوية لدى التيار التغريبي الروسي والقذحة الفكرية التي حولت اصلاحات بطرس الاكبر من مجرد اجراءات ادارية وعسكرية الى مسألة هوية وفلسفة سياسية. وضع تشاداييف الهوية الروسية امام مرآة النقد العقلاني، للشروع بفك الارتباط مع الماضي التقليدي، لوضع رؤية كونية شاملة وهو ما احدث صدمة هزت الوعي السياسي الروسي في القرن التاسع عشر، ونستطيع ان نتلمس افكاره السياسية بشأن التأسيس للهوية الروسية من منظور غربي بناءً على ما ثبته الحاكم بدوره في اعادة تشكيل الهوية الروسية ومن خلال ما يأتي:

اولاً: العقلانية المسيحية والتربية الروحية (المرأة كرمز لروسيا)

وجه تشاداييف رسائله الفلسفية، (وهو عبارة عن كتاب مكون من ثماني رسائل انتهى من كتابته عام ١٨٣١)، الى امرأة من نسج خياله، ونصحها في رسالته الفلسفية الاولى التي كتبها عام ١٨٢٩، ونشرت عام ١٨٣٦ بالمواطبة على تأدية شعائر الكنيسة لعددها رياضة روحية، والتي يجب ان لا تكون متعارضة مع معتقدات الشعب. وينصح بأن تكون الحياة منظمة بما يتوافق مع

٢٢ نيقولاى لوسكي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

٢٣ المصدر السابق، ص ٥٠.

حددت الاتجاه، وما على الحاكم الا ان يستثمر القوة التنفيذية التي يدير بها الدولة والشعب.

ثانياً: تشايف والهوية الروسية: من التراجع التاريخي إلى الرسالة العالمية المحتملة

طرح تشايف في كتابه اعتذار مجنون (١٨٣٧) تراجع الفكري عن النقد الذي وجهه سابقاً في كتابه رسائل فلسفية الى روسيا، اذ كان مكرساً بشكل أساس لتوضيح وتطوير تلك الرسائل. حيث وضع تشايف في عمله اعتذار مجنون، رؤية مميزة لمكانة روسيا بين الشرق والغرب. فقد رأى أن الشرق يميل إلى الفكر المتأمل والانسحاب الروحي، بينما الغرب يتجه نحو العمل والقانون والمصلحة العملية. في هذا السياق، اعتبر تشايف أن روسيا ليست مجرد طرف ثالث، بل قوة تاريخية قادرة على الجمع بين هذين النموذجين المتناقضين. أبرز تشايف فكرة أن تأخر روسيا في دخول المسرح العالمي ليس ضعفاً، بل ميزة تمنحها فرصة لتفادي أخطاء الأمم الأخرى، وبالتالي تولي مهمة إنقاذ البشرية وحل مشكلاتها الكبرى. كما شدد على البعد الجغرافي الفريد لروسيا، الممتدة بين أوروبا وآسيا، باعتباره رمزاً لدورها كجسر حضاري يوحد الشرق والغرب. بهذا الطرح، أسس تشايف لخطاب هوياتي يرى في روسيا أمة ذات رسالة عالمية، مؤهلة لتكون "محكمة الضمير" للبشرية، ومكلفة باستكمال الأفكار الكبرى التي عجزت عنها الحضارات السابقة. هذه الرؤية أسهمت في بلورة تصور قومي وروحي للهوية الروسية، يقوم على التفرد التاريخي والرسالة الإنسانية العالمية²⁴.

الاخلاقي للدين، فالليبرالية لديه عبارة عن ثمرة لتربية مسيحية عقلانية تهدف الى بناء الفرد المسؤول عوضاً عن تذويب الفرد في الجماعة كما في الثقافة الروسية، التي وجد فيها عاقبة للتقدم الروسي. ومن خلال ذلك يبرز دور الحاكم المستنير الذي لا يقصد به المستبد العادل بالمعنى التقليدي في الفكر السياسي، بل كـ "مهندس للهوية"، يقود عملية التحول الحضاري من الاعلى، يوظف الدين كإطار تربوي يضمن عدم خروج الفرد عن القيم الاخلاقية للشعب، وفي الوقت نفسه يحره من انخول الجمعي. وبذلك يصبح التغريب عند تشايف مشروعاً لبناء دولة القانون تحترم حرية الفرد، دون ان تنسلخ من روح المسيحية الامر الذي يجعلها هوية متوازنة تجمع بين العقلانية الغربية والالتزام الروحي الروسي. وعلى كل ذلك نستنتج انه لم يؤمن بمبدأ فصل الدين عن الدولة، وانما جهد لدمجهما وظيفياً، فالهوية الروسية في مشروعه مزيجاً بين الروح المسيحية والعقلانية السياسية، فالحاكم يقود عملية التحديث دون الانفصال عن الاساس الاخلاقي للدين. وبذلك فأن تشايف وظف حالة العدم الروسي (لا من الشرق ولا من الغرب) كفرصة مثالية للحاكم، ليملاً الارض الروسية البيضاء، بنظام ليبرالي يجمع بين عقلانية الغرب وروحانية الشرق، ناقلاً روسيا من عدم الانتماء الى قيادة العقل الكوني. وعلى هذا الاساس نستطيع ان نستخلص ان تشايف كان البوصلة الفكرية التي

24 Богданов Андрей Владимирович. "Русская идея в философских воззрениях П. Я. Чаадаева" Власть, no. 10, 2011.c.61-65.

من الاسباب التي جعلت تشاداييف يتراجع في فكره السياسي عن نقده لروسيا عندما اعتبرها ليست شيئاً من التاريخ، او انها لم تمنح الانسانية شيئاً، الى وضعها في مكان حاملة للرسالة العالمية للحضارات الاخرى، عائد للاضطرابات التي شهدتها اوروبا ولا سيما الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠ التي جعلته اقل انجذاباً للغرب عما كان عليه في السابق^{٢٥}.

ويستنتج من ذلك ان التحول في فكر تشاداييف حيال الاطروحة التغريبية، انه انتقل بها من هدف التبعية، الى هدف التفوق، اذ اراد لروسيا ان تأخذ مستخلص العقلانية الغربية وليبراليتها، دون المرور بأمراض الغرب وماديته المغرقة، لتتحول الهوية الروسية من متأخر للحضارة الى وارث شرعي يقود العقل الكوني.

في نهاية هذا المطلب ومن خلال ما تقدم تجلت لنا صورة التناقض البنوي في فكر تشاداييف حيث وصف روسيا بدايةً بأنها لا من الشرق ولا من الغرب وانها فراغ تأريخي، بعد ذلك منحها مكانة حمل لواء رسالة عالمية لقيادة البشرية، وهو ما يوضح التقلب الفكري بين جلد الذات الروسية وبين الهوس بعظمتها. اما محاولة الجمع بين عقل الغرب وروح الشرق، انتجت مشروعاً لم يوضع له معالم واضحة، مما جعل الهوية الروسية المقترحة ضائعة او مفقودة، تريد الارتباط بالمنظومة العالمية مع الاحتفاظ بتفوقها المتأخر. حيث منح تشاداييف السلطة

الروسية مبرراً اخلاقياً وسياسياً للقيادة عبر اقتراحه للبديل الحضاري الذي يدمج بين نظام الغرب مع روح الشرق، الا انه بقي مشروع يفتقر الى معالم واضحة للتطبيق. وهذا ما جعل الهوية الروسية تنزلق في اشكالية الضياع بين عالمين، فهي من ناحية تريد الارتباط بالمنظومة العالمية ومن ناحية اخرى تريد ان تملك تفوقها الروحي المتأخر مما جعلها هوية قلقة تتأرجح بين التماهي والتميز، الامر الذي اربك الهوية الروسية عملياً لقرون. هذا التناقض هو الذي تسبب بفتح الباب امام الفكر السياسي الروسي لظهور التيار السلافي الذي سيبحث عن الهوية في الانفصال والخصوصية، لا بالاندماج مع الغرب. ومع كل ذلك نستطيع ان نقول استنتاجاً ان تشاداييف قد اسس بتراجع الفكري لتيار اخر نطلق عليه بالتيار التوفيقي الذي يوفق ما بين منجزات الغرب، وفكر الشرق، لتأسيس هوية روسية جامعة بين المتناقضين.

المطلب الثاني: التيار السلافي: (الخصوصية الحضارية نيكولاي دانييلفسكي أمودجاً)

تأسست النزعة السلافية في اربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، كواجهة دفاعية للصدمة التي اعلنها فكر تشاداييف، وبرزت من خلال مجموعة من المفكرين الرواد امثال (ايفان كيرفسكي، الكساي خومياكوف، قسطنطين اكساكوف، ويوري سامارين)، الذين ركزوا على المسائل الروحية واللاهوتية للذات الروسية. وغالوا

٢٥ نيقولاى لوسكي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.

المتأخرة، استناداً لطروحاته الفكرية السياسية حيث لم يركز اهتمامه على الجانب الروحي فقط بل امتد لتأسيس نظرية سياسية وجيوسياسية متكاملة. منح دانييلسكي وفق نظريته الحاكم الروسي الاداة الفكرية لتحويل الخصوصية الروحية الى مشروع سيادة ودولة وهو ما يخدم صلب بحثنا في تتبع دور الحاكم في صياغة الهوية، والتي ستظهر لنا من خلال افكاره الاتية.

اولاً: نظرية الأنماط الثقافية التاريخية:

قدم دانييلسكي تصوراً خاصاً لمسار التاريخ يقوم على فكرة الأنماط الثقافية التاريخية التي تتطور من مرحلة اثوجرافية إلى دولة، ثم إلى حضارة. وقد أحصى عشرة أنماط استنفدت إمكاناتها (أي الحضارات الانسانية

في تجسيد الماضي السياسي الروسي، فضلاً عن انهم وضعوا تصوراً مسيحياً للعام مبني على اسس تعاليم اباء الكنيسة الشرقيين، وعلى المذهب الأرثوذكسي الذي تمثله الشعب الروسي^{٢٦}. ان المبادئ الاساسية التي يقوم عليها التيار السلافي تتجسد بالاتي: ((الأرثوذكسية، (الاولوقراطية: الاستبداد)، القومية))، فكما ان العقيدة السياسية والروحية الشاملة التي تسير بموجبها الدولة والمجتمع تقوم على هذه المبادئ ايضاً، الا ان الاختلاف بين الاثنان يكمن في اولوية كل منها، فالتيار السلافي يضع الأرثوذكسية في الصدارة بينما العقيدة السياسية تضع الاستبداد في المقدمة اما الأرثوذكسية والقومية يأتيان ثانياً^{٢٧}. وعلى ذلك كان اختيارنا في هذا المطلب على نيكولاي دانييلسكي* احد اقرب النزعة السلافية

٢٦ نيقولاى لوسكي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢-٤٩. وكذلك ينظر:

Майорова Елена Ивановна, and Майоров Георгий Александрович. "ЖИЗНЬ, СУДЬБА И НАУЧНО-ФИЛОСОФСКИЕ КОНЦЕПЦИИ Н. Я. ДАНИЛЕВСКОГО" Постсоветский материк, no. 1 (41), 2024, c.138.

٢٧ نقولا برديانف، اصل الشيوعية الروسية، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: راشد البراوي، (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦)، ص ٣٠.

* نيكولاي ياكوفليفيتش دانييلسكي (١٨٨٥-١٨٢٢): فيلسوف تاريخ متميز، وعالم اجتماع، وعالم نفس عرقي، ومفكر سياسي، وكاتب، ومنظراً للقومية السلافية. مؤسساً للمنهج الحضاري الثقافي التاريخي، ورائداً للفكر الأوراسي (الذي ظهر في النصف الأول من القرن العشرين)، ومؤلف العمل الشهير "روسيا وأوروبا" (١٨٦٩)، الذي يتضمن نظرية "الأنماط الثقافية التاريخية". ومؤلف أعمال في اللاهوت والاقتصاد والإحصاء والجغرافيا. ترك إرثاً كعالم نبات وحيوان، ألف عملاً نقدياً من مجلدين حول الداروينية. وبقدر تنوع مظاهر موهبته، تنوعت أيضاً تقييمات أعماله. فلدني دانييلسكي مدافعون عنه ومؤيدون له بلا قيد أو شرط، ولكنه أيضاً يواجه العديد من المعارضين حاله حال العديد من المفكرين والعلماء الكبار. ففرئته للعالم تُنبح بالفعل أرضيةً لأراء وتقييمات مُعارضة. ينظر:

Ю. С. Пивоваров. "Николаи данилевский: в русской культуре и в мировой науке" Мир России. Социология. Этнология, vol. 2, no. 1, 1992, c.163-165

وكذلك ينظر:

И.Г. "Н. Я. Данилевский" Вестник культурологии, no. 3, 2001, c.174.

السابقة)، لكنه اعتبر النمط السلافي، المتمثل في روسيا، يمثل حضارة جديدة واعدة. في نظره، أوروبا ليست حضارة إنسانية عالمية، بل مجرد منطقة مرتبطة بالتقاليد الجرمانية-الرومانية، بينما روسيا لم تستمد قوتها من تلك الجذور، بل من خصوصيتها التاريخية والاجتماعية. من هنا، رأى دانييلفسكي أن روسيا ليست جزءاً من أوروبا، بل حضارة مستقلة لها ماضيها ومستقبلها الخاص، وأن دورها التاريخي هو حمل الحضارة الأوروبية ونشرها في الشرق، لكن بخصوصيتها السلافية. بهذا الطرح، يصبح "النمط السلافي" هو الإطار الذي يحدد هوية روسيا، باعتبارها حضارة فريدة ضمن التنوع الحضاري العالمي، قادرة على تقديم بديل عن النموذج الأوروبي²⁸. وبناءً على ذلك تشكلت رؤية دانييلفسكي لروسيا، بحكم موقعها الحضاري المغاير، التي لم تدمج يوماً في البنية الأوروبية، بل ظلت وجوداً مقلداً لتوازن القوى في القارة. ويُفسر العداء الأوروبي تجاهها باعتباره انعكاساً لتحيزات راسخة وغرور تاريخي، أكثر منه استجابة لحقائق موضوعية. فحجم روسيا الجغرافي والسياسي يُستحضر دائماً كتهديد وجودي، في حين تُظهر أوروبا استعداداً للتحالف مع الامبراطورية العثمانية المسلحة، وهو ما يكشف عن انتقائية في معاييرها السياسية. هذا التحليل لم يكن مجرد

توصيف للواقع، بل جزءاً من مشروع دانييلفسكي الفكري لصياغة هوية روسية مستقلة، تُعرف نفسها في مواجهة الغرب لا من داخله. ومن خلال هذا الوعي بالذات السلافية، سعى إلى التنظير لمستقبل تُعيد فيه روسيا تحديد موقعها الحضاري، باعتبارها قوة تاريخية ذات رسالة خاصة، لا مجرد طرف في لعبة التوازن الأوروبي. يُفهم من ذلك أن خطاب دانييلفسكي لم يكن دفاعياً خصب، بل تأسيسياً لهوية روسية تسعى إلى تجاوز التبعية وإرساء مشروع حضاري بديل²⁹.

انطلاقاً من نظرية الانماط الثقافية التي بنى دانييلفسكي أطرها ووضح ركائزها وحدد مكانة روسيا وموقعها الحضاري فيها، تشكلت رؤيته للهوية الروسية بكونها ليست امتداداً لأوروبا ولا مجرد جزء من آسيا، بل هي هوية حضارية مستقلة، قائمة على خصوصية الشعب الروسي وموقعه التاريخي وفق النمط السلافي. هذه الرؤية تعزز فكرة أن روسيا تحمل رسالة حضارية خاصة، ويضعها في موقع متميز داخل خريطة الحضارات العالمية، حيث تُعرف نفسها كحضارة سلافية ذات طابع إنساني ورسالي، لا كنسخة من الغرب الأوروبي. ويمنحها دوراً رسالياً في المستقبل، باعتبارها الوريثة

28 Там же.с.176-177.

29 Валерий Александрович Фатеев. "Н. Я. Данилевский и его место в истории русской философской мысли. К 200-летию юбилею мыслителя" Русско-Византийский вестник, no. 4 (19), 2024.с.111. и Ермаков Дмитрий Сергеевич. "Судьба наследия Н. Я. Данилевского в XXI веке" Проблемы современной науки и образования, no. 6 (126), 2018,с.66.

والمكلمة لمسار التاريخ بعد أن استنفدت الحضارات السابقة طاقاتها. بمعنى أن الحضارات السابقة هي المراحل التي سبقت، وروسيا هي الحضارة الجديدة التي رآها دانييلسكي مستقبلاً للتاريخ الإنساني. بناءً على هذا التصور الذي طرح تحولاً في وظيفة الحاكم، فالهوية هنا لا تبني على الخيار العقلاني بالمحاكاة، وإنما أضحت قدراً تاريخي ووراثية حضارية متأصلة. فالحاكم لم يعد دوره مقتصرًا على الإدارة وتحديثها، بل أصبح حارساً لأصالة الدولة بأمضيتها وتاريخها لتعيش حاضرها وتبني مستقبلها المتفرد، ومن خلال حماية نقاء التكوين السلافي من الاختلاط بالقيم الغربية، الحاكم لدى دانييلسكي يكسب شرعيته من قدرته على تجسيد هذا الاختلاف الحضاري وتخصيصه كعنصر قوة لا ضعف.

ثانياً: المشروع السياسي: الاتحاد السلافي الشامل وركائزه السياسية:

تصور دانييلسكي الاتحاد السلافي كدولة موحدة ضخمة تضم جماعات عرقية سلافية تنقسم تراثاً وثقافة مشتركة، لكنها تعيش متفرقة في أرجاء الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية. ولبناء الدولة الكبيرة الموحدة، يكون بالارتكاز على رافدين أساسيين: المحلي المتجسدة بتقاليد الفكر الروسي، وتحديدًا "السلافوفيل" (حب السلاف)، والتي اعتبرها دانييلسكي مساهمة روسيا المركزية في نظرية الحضارات العالمية. والخارجي الاوربي المرتكز على القومية السلافية التي نشأت في النمسا والمجر، مما جعل مشروعه يقع ضمن ما يُعرف بـ اليوتوبيا المحافظة^{٣٠}.

أكد دانييلسكي على أن روسيا أقوى من أن تحتل مكانة أحد أعضاء الأسرة الأوربية، أو أن تكون إحدى القوى الأوربية العظمى. لن تتبوأ روسيا مكانة تاريخية تليق بها وبالسلاف إلا بأن تصبح رأس نظام سياسي مستقل خاص، وأن تُشكّل ثقلًا موازنًا لأوروبا في

* اليوتوبيا المحافظة: تتأسس اليوتوبيا المحافظة كبنية أيديولوجية مناهضة للنظام الاجتماعي القائم، تعمل على تفكيك السرديات التي تمنحه الشرعية والقداسة. وفي المقابل يطرح المنظر المحافظ نموذجاً مثاليًا يستمد مقوماته من البناء الداخلي للمجتمع ومفهوم روح الأمة، وهي قيم تجلت تاريخياً في الماضي، وما زال لها امتداد جزئي في الحاضر. وفي هذا السياق يؤصل الباحث السلافي (اندرية فاليتسكي) لمفهوم اليوتوبيا المحافظة بوصفه نقداً راديكالياً للواقع، يهدف في جوهره إلى الدفاع عن نمط وجودي محدد وتبريره. ولا سيما عندما تواجه أسسه الأخلاقية تهديداً حقيقياً. وبناءً على هذه المقاربة، يغدو استدعاء مصطلح اليوتوبيا المحافظة، استناداً إلى الأطروحة السوسيولوجية (لكارل مانهيم)، مسوغاً علمياً ومنهجياً، وهو المفهوم الذي يوظف اجرائياً كقاعدة عامة في قراءة وتفسير ادبيات التيار السلافي (السلافوفيل) في التاريخ الروسي. ينظر:

М. Д. Суслов. "Эволюция консервативной утопии в России в XIX веке" Вестник Пермского университета. Серия: История, no. 4, 2003, c.85.

30 Маслин Михаил Александрович. "Николай Данилевский: между славянофильством и панславизмом" Философский журнал, vol. 16, no. 4, 2023, c.5.

يمكن أن تحقق مكانتها التاريخية داخل أوروبا، إلا عبر قيادة مشروع حضاري مستقل يضمن التوازن العالمي. الاتحاد السلافي، في تصوره، هو وسيلة دفاعية لحماية السلاف والعالم من الهيمنة الأوروبية، وفي الوقت نفسه إطار لصياغة هوية روسية جديدة تقوم على القيادة الحضارية والرسالة التاريخية. وعلى اثر ما طرحه دانييلفسكي في كتابه "روسيا وأوروبا"

وبما تم بيانه انفاً نستطيع ان نستخرج الركائز الفكرية والسياسية، الميزة لمشروعه السياسي القائم على الاتحاد السلافي وكما يلي:

١- رفض الاندماج الاوربي: يرى دانييلفسكي انه لا يمكن اعتبار روسيا جزءاً لا يتجزأ من أوروبا، لا من حيث الأصل ولا من حيث التبنّي؛ إذ لا ينتظرها سوى خيارين: إما تشكيل وحدة ثقافية متميزة ومستقلة مع السلاف الآخرين، أو أن تُحرم من كل دلالة ثقافية تاريخية، أي أن تصبح لا شيء^{٣٢}.

٢- الاتحاد السلافي كجمال حضاري مستقل: يؤكد دانييلفسكي ان روسيا لا تستطيع أن تثبوا مكانة تاريخية تليق بها وبالسلاف إلا بأن تصبح رأس

وحدتها وتماسكها. هذه هي مزايا الاتحاد السلافي، وفوائده، ومعناه بالنسبة لروسيا. وبالتالي، فإن الاتحاد السلافي لا يُهدد الهيمنة العالمية، بل على العكس تماماً، فهو يُمثل ضماناً ضرورية، بل والضمانة الوحيدة الممكنة، للحفاظ على التوازن العالمي، والحصن المنيع ضد هيمنة أوروبا. لن يُشكل هذا الاتحاد تهديداً لأحد، بل هو إجراء دفاعي بحت، ليس فقط لمصالح السلاف الخاصة، بل لمصالح الكون بأسره. لن تكون نتيجة اتحاد سلافي شامل هي الهيمنة على العالم، بل تقسيم عادل ومتساوٍ للسلطة والنفوذ بين الشعوب أو الجماعات التي تُعتبر، في هذه المرحلة من التاريخ العالمي، مشاركين فاعلين فيه: أوروبا، والسلاف، وأمريكا، وكلها في مراحل تطور مختلفة. وبحسب موقعها والاتجاه العام الذي اتخذته في استيطانها وانتشار سيطرتها، ستشمل سلطة أوروبا أو نفوذها في المقام الأول أفريقيا وأستراليا وشبه الجزيرة الجنوبية من قارة آسيا؛ والولايات الأمريكية أمريكا، والسلاف غرب ووسط وشرق آسيا، أي القارة بأكملها باستثناء شبه الجزيرة العربية وشبه الجزيرة الهندية^{٣١}.

ومن خلال ما تم بيانه عن فكرة تشكيل الاتحاد السلافي او ما يدعى بالجامعة السلافية في فكر دانييلفسكي الذي بنى رؤيته عن الاتحاد المذكور على قناعة بأن روسيا لا

31 Данилевский Николай Яковлевич. "Россия и Европа" Среднерусский вестник общественных наук, no. 1, 2006, c.128.

32 دانييلفسكي Н. Я. Россия и Европа. / Составление и комментарии Ю. А. Белова / Отв. ред. О. Платонов. – М.: Институт русской цивилизации, 2008. с. 475.

في ختام هذا المطلب، ارتكر جوهر طرح دانيلفسكي بصياغة هوية رسالية لروسيا، تخرج بها من عباءة التبعية الحضارية لأوروبا لتضعها في مقام القائد لكافة ثقافية وسياسية مستقلة الهوية كبديل حضاري، لا تُعرّف روسيا نفسها كجزء من الغرب، بل كمركز لخط ثقافي سلافي خاص. الاتحاد السلافي هنا ليس مجرد تحالف سياسي عرقي، بل هو الجامع المؤسس الذي يمنح هذه الهوية شرعيتها التاريخية وتفوقها على القيم الليبرالية التقليدية، وكافة حضارية أرثوذكسية، فالمذهب الديني هو الرابط الروحي والسياسي الذي يمنح هذه القوميات خصوصيتها في مواجهة المادية الغربية.

الا ان رؤيته شكلت تناقضاً بين الدفاع والتوسع، حيث يظهر المشروع في ظاهره كدفع دفاعي لحماية السلاف من الهيمنة الأوروبية، لكنه في العمق يرسم حدوداً جيوسياسية توسعية تضع روسيا كقطب عالمي منافس يمتد في آسيا ويواجه القوى العظمى. كما انه عبر عن التجسيد للمثالية "الطوباوية السياسية، وارتبطت ثغرة مشروعه في افتقاره للواقعية، فهو يقدم السلافية كقيمة عليا مطلقة، غافلاً الانقسامات القومية والسياسية العميقة داخل الشعوب السلافية نفسها، مما يحول الرؤية من (خطة عمل) إلى (خطاب هوية) نظري. وفي المحصلة يعد ما قدمه دانيلفسكي نجاحاً في تأسيس

نظام سياسي مستقل و متميز، وأن تُشكّل ثقلاً موازناً لأوروبا بوحدتها وتماسكها³³.

٣- التوازن العالمي كغاية جوهرية: ربط دانيلفسكي الاتحاد السلافي بفكرة الحفاظ على التوازن الدولي، معتبراً إياه الحصانة الوحيدة الممكنة ضد الهيمنة الأوروبية. الاتحاد لا يسعى للهيمنة على العالم، بل الى تقسيم عادل ومساوٍ للسلطة بين القوى الفاعلة (أوروبا، السلاف، أمريكا)³⁴.

٤- تقسيم مجالات النفوذ عالمياً: بموجب الموقع الجغرافي حدد دانيلفسكي مجالات النفوذ والتوسع أوروبا (أفريقيا، استراليا، وشبه الجزيرة الجنوبية من قارة آسيا)، أمريكا (القارة الأمريكية) السلاف (غرب ووسط وشرق اسيا)، أي هذه القارة بأكملها باستثناء شبه الجزيرة العربية وشبه الجزيرة الهندية³⁵.

٥- هوية روسية قائمة على القيادة الحضارية: الاتحاد السلافي يمثل اداة لصياغة هوية روسية متميزة، هذه الهوية تعرف نفسها من خلال قيادة السلاف في مواجهة الغرب، وتقدم كقوة حضارية مستقلة ذات رسالة خاصة في تاريخ الانسانية³⁶.

33 Там же.с.481.

34 Там же.с. 486-489

35 Там же.с. 510.

36 Там же.с. 514-515

المطلب الثالث: التيار التوفيقي التطبيقي في هندسة الهوية الروسية (من الاتحاد السوفيتي الى الاتحاد الروسي)

لم تكن هندسة الهوية في مرحلة الاتحاد السوفيتي وليدة مرحلة الثورة، بل كانت نتاج مخاض فكري وسياسي شهدته روسيا في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فبعد ان صاغ دانييلفسكي سمات الاصلية السلافية، تحولت هذه الافكار في اروقة السلطة القيصرية المتأخرة الى اداة للحفاظ على الوضع الراهن^{٣٧}. لم يكن بزوغ التيار التوفيقي في الفكر السياسي الروسي مجرد رد فعل عارض، وانما كان ضرورة نبوية بغية حماية كيان الدولة وسط صراع الهويات التقليدي. فبدلاً من القطيعة المطلقة مع الموروث السلافي، اعتمد الحاكم المهندس سياسة: ازاحة المحتوى مع الحفاظ على الهيكل. حيث اكد الفيلسوف نيقولا برديائف هذا الترابط التاريخي بقوله " ان الشيوعية الروسية اشد ارتباطاً بالتقاليد مما يظن، وانها تحويل وتحريف للفكرة الروسية المساوية القديمة"^{٣٨}.

اولاً: الهندسة الايديولوجية للهوية الروسية في العهد السوفيتي (لينين انموذجاً)

ان هندسة الهوية في العهد السوفيتي لم تكن مجرد فرض نظرية اقتصادية، بل كانت استجابة للنزعة الكلية

ايديولوجي للهوية الروسية قائمة على "الاستقلال الحضاري"، لكنه أخفق في تقديم مشروع سياسي قابل للتنفيذ، ليظل الاتحاد السلافي لديه رمزاً معنوياً لإثبات الذات الروسية أكثر من كونه كياناً واقعياً. وهكذا، تتجلى لنا مفارقة جوهرية في فكر دانييلفسكي، إذ إنه أخفق في زمانه حين عجز عن تحويل الاتحاد السلافي إلى مشروع سياسي قابل للتطبيق يلم شتات القوميات السلافية المتنافرة آنذاك، لكنه نجح في مستقبله بامتياز. فقد استطاعت أفكاره أن تتجاوز عجزها التطبيقي الأولي، لتتحول من مخطط غير قابل للتنفيذ في القرن التاسع عشر إلى عقيدة للهوية الروسية عابرة للأجيال. وبناءً عليه، فإن ما ظل في عصره مجرد رمز معنوي لإثبات الذات، استعاد حضوره اليوم بوصفه موجهاً أيديولوجياً يمنح صانع القرار الروسي المبرر الفلسفي لإعادة تقديم الدولة ك (حضارة مستقلة)، فدانييلفسكي الذي فشل كمهندس للسياسة قديماً، بُعث من جديد كلهم للهوية المعاصرة، حيث لم تعد السياسة الروسية اليوم تستنسخ مشروعه الحرفي، بل تستلهم روحه الرسالية لتأسيس واقع جيوسياسي جديد، وبهوية روسية محافظة دفاعية توسعية، كما سيتم بيانه في المطلب الثالث.

٣٧ نيقولاى لوسكي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠-٢٦٣.

٣٨ نيقولا برديائف، اصل الشيوعية الروسية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٦.

المتجذرة في العقل الروسي. ويؤكد نيقولا بردياتف هذا الترابط النفسي والسياسي بقوله " ان الشيوعيين الروس الملحدون يؤكدون الكلية والشمولية، على نحو لا يقل عما يفعله اصحاب الاتجاه التقليدي الأرثوذكسي"، معتبراً ان الأرثوذكسية الروسية في جوهرها النفسي "نزعة كلية شمولية". وهذا يفسر لماذا لم يجد الروس مثابة في استبدال شمولية (القيصر والكنيسة) بشمولية (الحزب والايديولوجيا)، لان المحرك الاساسي يظل الايمان بالكلية ورفض التجزئة الليبرالية الغربية^{٣٩}.

وعلى ذلك نستنتج ان الحقبة السوفيتية مثلت الانعطافة الابرز في قدرة الحاكم المهندس، على التوفيق بين متطلبات الحداثة الغربية وجوهر الروح الروسية، فلم يكن صعود لينين قطيعة حضارية مع الطموحات القومية السابقة، بل كان استجابة نفعية براغماتية لمعضلة الهوية عبر عملية جعل الماركسية روسية، وبأسقاط رؤية الفيلسوف بردياتف على هذا التحول، نجد ان الشيوعية الروسية كانت اشد ارتباطاً بالتقاليد مما يظن وانها مثلت تحويلاً وتحريفاً للفكرة الروسية المساوية القديمة. وتجلّى براغماتية الحاكم المهندس هنا في مستويين بنيويين:

١ - المستوى النفسي- السياسي (استمرارية الكلية الشمولية): حيث يستنتج من القراءة التحليلية لبردياتف، ان الشيوعيين الروس رغم الحادهم

الصريح، قد اكدوا على الكلية والشمولية على نحو لا يقل عن اصحاب الاتجاه التقليدي الأرثوذكسي. ومن هذا الاساس يمكن القول ان لينين لم يهدم بنية المجتمع الروسي، بل قدم علمنة النزعة الكلية، حيث استبدل "الخلاص الروحي" بـ "الخلاص الطبقي" ناقلاً الولاء من (القيصر والكنيسة) الى (الحزب والايديولوجيا). هذا التحول الوظيفي سمح للدولة بالحفاظ على اداة التعبئة الجماعية المتجذرة في الشخصية الروسية، مما يثبت ان الكلية هي ثابت بنيوي في هندسة الهوية الروسية تتجاوز المتغير الايديولوجي.

٢- المستوى الوظيفي (جعل الماركسية روسية كأداة قوة): وفقاً لهذه المقاربة لم تكن الماركسية في الرؤية اللينينة سوى نظرية اقتصادية وافدة، بل جرى تكييفها لتصبح درعاً للهوية يحمي خصوصية الدولة. فبينما كانت الماركسية الغربية تفترض ذبول الدولة وانهارها، عمل لينين على تضخيم الدولة المركزية الى اقصى حدودها الاوتوقراطية، محولاً ايها الى امبراطورية ايديولوجية تبنى نفس الطموحات الرسالية التي دعى لها دانييلفكي في مشروعه للاتحاد السلافي. وبذلك تحولت الرسالة الأرثوذكسية الى رسالة امية، وبقيت موسكو هي المركز الحضاري الذي يقود العالم نحو الخلاص وهو

٣٩ المصدر السابق، ص ٢٩.

ما يفسر تقبل العقل الجمعي الروسي للشمولية السوفيتية كبديل طبيعي للشمولية القيصرية.

بناءً على ما تقدم يمكن القول ان مرحلة لينين جسدت النسخة المادية للأصالة الروسية حيث تم الحفاظ على الاركان الثلاث للهوية: (المركزية السلطوية تقابل الاوتوقراطية، الجماعية تقابل القومية، الرسالية تقابل الأرثوذكسية)، مع تحديث المحتوى لينسجم مع ضرورات العصر الصناعي وصراع القوى الدولي. ان هذا التوفيق المتميز هو الذي منع انحلال روسيا وذوبانها في المنظومة الليبرالية الغربية، وابقاها قطباً حضارياً مستقلاً بامتياز، محققاً بذلك غاية التيار السلافي ولكن بأدوات مادية ثورية. وهو ما يعكس طبيعة الهوية الروسية التوفيقية المركبة.

ثانياً: الهندسة العقلانية للهوية الروسية في الاتحاد الروسي (بوتين أنموذجاً)

لا يمكن فهم ابداع الحاكم المهندس وبصيرته في روسيا المعاصرة، دون الوقوف على مرحلة بوريس يلتسن في تسعينيات القرن العشرين، حيث مثلت تلك الحقبة محاولة قسرية لتغريب الهوية الروسية بشكل شامل والاقتداء بالنموذج الليبرالي الغربي (سياسياً واقتصادياً).

غير ان هذا التبني والاقتداء ادى الى تفكك المؤسسات وانهيار مكانة الدولة، وهو ما وثقه بافل خليبنيكوف في كتاب (ثعالب الكرملن) واصفاً ايها بمرحلة نهب روسيا، وضياح هويتها المركزية لصالح المصالح الخاصة^{٤٠}. كما اضاف سيرغي قره مورزا ان هذا التحول لم يكن سياسياً فحسب، بل كان تفكيكاً للوعي الجماعي الروسي لصالح ثقافة اقتصادية وافدة ادت الى حالة من الضياع الهوياتي والاجتماعي^{٤١}.

وبضوء ما ذكر انفاً نستنتج من قراءة هذا المسار ان يلتسن وقع في شرك التغريب الاحادي، فهو حين حاول اللحاق بالركب الغربي، اقتبس من الفيلسوف والمفكر السياسي تشاداييف مرحلته الفكرية الاولى التي تمثلت بالرسائل الفلسفية التي انتقد فيها جمود روسيا، ونادى بالذوبان في النمط الحضاري الاوربي، ولكنه لم ينتبه الى الانعطاف الاساسية في فكر تشاداييف نفسه ضمن كتابه في اعتذار مجنون. في الوقت الذي تراجع فيه تشاداييف عن تعاطفه مع الغرب، ليؤكد على خصوصية روسيا ورسالتها النوعية للبشرية كقوة قادرة على حل مشاكل ومعضلات الشرق والغرب، توقف يلتسن عند عتبة التغريب المطلق والتبعية الكاملة. مما ادى الى خلق مأزق حضاري وانهيار مؤسساتي.

٤٠ بافل خليبنيكوف، ثعالب الكرملن وعراب نهب روسيا بورييس بيريزوفسكي، ترجمة: منتجب يونس، ط ٢، (دمشق، دار علاء الدين، ٢٠٠٩).

ص ٨-١٢.

٤١ سيرغي قره مورزا، الاتحاد السوفيتي من النشوء الى السقوط، ترجمة: شوكت يوسف، (دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٨)، ص

٤٨٦-٤٩٢.

ان هذا الفشل استوجب من فلاديمير بوتين بظهوره في سلك القيادة والسلطة والحكم ان يكون مهندساً توفيقياً لصياغة هوية تدمج بين الرموز المتناقضة تاريخياً، حيث ادرك ان قوة روسيا وتحقيق استقرارها يتجلى بالتوفيق المذكور، وذلك عبر المسارات التالية كأدوات هندسية موثقة وكما يلي:

١- المسار الكنسي (الاصالة الروحية): وضع وولتر

لاكوير في كتابه البوتينية كيف اعاد بوتين الاعتبار للكنيسة الأرثوذكسية ليس كدين نجس بل كعنصر امن قومي يربط بين الشعب والدولة^{٤٢}.

٢- هندسة الرموز (التوفيق البصري): اقتبس بوتين

الراية الحمراء استناداً لمعايير الجيش مع النسر القيصري المزدوج، والحان النشيد الوطني السوفيتي، مما خلق شعوراً بالاستمرارية التاريخية^{٤٣}.

٣- الطريق الثالث (التوفيق الاقتصادي

والجيوستاسي): يمثل هذا المسار ما تكلم عنه الكسندر دوغين في كتابه اساس الجيوبولتيكا فهو طريق يرفض التبعية المطلقة للنموذج الليبرالي

الغربي (طريق يلتسن)، كما يرفض العودة للجمود الاشتراكي التام، ويطرح نموذجاً يجمع بين اقتصاد السوق وبين المصالح الوطنية والجماعية، التي تضمن سيطرة الدولة على مواردها الاستراتيجية كأداة قوة جيوسياسية، ويعبر في الوقت نفسه عن كون روسيا دولة حضارة مستقلة^{٤٤}.

٤- الاداة السلطوية (الديمقراطية الموجهة

والسيادية): من الاجراءات التي وظفها بوتين لتركيز سلطته وترسيخها لجأ الى ما عرف بالديمقراطية الموجهة لتقوية سلطته الشخصية لضبط الاطراف واعادة الهبة للمركز محاكياً للارث القيصري والسوفيتي، للعمل على انهاء سيطرة الاوليكرشية ووسائل الاعلام التابعة لها واخضاعها لسيطرة الدولة، فضلاً عن السيطرة على النظامين الانتخابي والحزبي في روسيا^{٤٥}. اما الديمقراطية السيادية التي صاغها فلاديسلاف سوركوف والتي تم استخدامها كرد فعل دفاعي ضد محاولات التدخل الغربي بسيادة الدولة الروسية ابان عهد بوتين وتعرف بأنها "درع أيديولوجي" يدمج بين التحديث التقني

٤٢ وولتر لأكوير، البوتينية: روسيا ومستقبلها مع الغرب، ترجمة: فواز زعرور، (بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ٢٠١٦)، ص ١٠٢-١٠٤.

٤٣ ستيفن لي مايرز، القيصر الجديد، ترجمة: تيسير نظلي خليل، مراجعة: محمد ابراهيم العبد الله، (المملكة العربية السعودية- الرياض، العبيكان، ٢٠١٨)، ص ٢٧٣-٢٧٤.

٤٤ الكسندر دوغين، اساس الجيوبولتيكا: مستقبل روسيا الجيوبولتيكي، ترجمة وتقديم: عماد حاتم، (بيروت-لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤)، ص ٣٢٧-٣٣١.

٤٥ الابعاد الاستراتيجية لصعود الدب الروسي، اوراق سياسية، (دم، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، ٢٠١٧)، ص ١٣.

للسيادة الجيوسياسية، مما جعل من الهوية الروسية في عهد بوتين صيغة توفيقية ناجحة اوقفت تأكل الهوية وانكسارها وتصدعها.

بناءً على ما تقدم في هذا المطلب، يمكن القول ان هندسة الهوية الروسية عبر مراحلها المتعددة (لينين، يلتسن، بوتين) كشفت عن صراع ازلي بين التبعية والخصوصية فينما قام لينين بجعل الايديولوجية الوافدة الماركسية روسية، ليحفظ وحدة الدولة، وقع يلتسن بمصيدة التغريب المطلق، الذي كاد ان ينيي وجود روسيا ككيان مستقل. ومن رحم هذا الفشل ظهر بوتين ليعيد صياغة وتشكيل الذات الروسية وهويتها بهندسة موفقة ذات بعد استراتيجي ورؤية حادة ببراعة الحاكم المهندس، بالتوفيق بين ادوات ووسائل وروح الحضارة الروسية والمادة الغربية جمعت بين قداسة الأرثوذكسية ومركزية الدولة القيصرية والسوفيتية، ونفعية الاقتصاد العالمي.

ان نجاح الحاكم المهندس المعاصر يكمن في قدرته على تحويل المتناقضات التاريخية الى وحدة هوياتية متماسكة اخرجت روسيا من حالة فقدان الارث الحضاري ومنجزاته في التسعينيات من القرن العشرين الى حالة القطبية الدولية في القرن الحادي والعشرين، مما يثبت ان الهوية الروسية ليست كياناً جامداً بل هي

والاستقلال السياسي، لرفض النماذج الغربية ومنع تكرار سيناريو "الثورة البرتغالية". ويتجلى مفهومها بالسيادة الوطنية شرطاً مسبقاً لأي ممارسة ديمقراطية، بما يضمن حق الدولة الحصري في تعريف نظامها وحمايته من التدخلات الخارجية⁴⁶.

يستنتج من الدراسة المستفيضة لهذه المسارات الهندسية، ان بوتين لم يمارس السياسة بمعناها الضيق، بل مارس الهندسة الحضارية، فهو لم يكتفِ باستعادة الرموز القديمة القيصرية والسوفيتية كواجهة ثقافية، بل انعش الحياة فيها لتكون ترساً في آلة الدولة المعاصرة. ان الطريق الثالث الذي تبناه بوتين هو في جوهره التطبيق العملي لـ "اعتذار مجنون"، فضلاً عما شار اليه دانيلفسكي بشأن روسيا المختلفة عن الغرب واعادة صياغة الهوية الروسية بالنط السلافي المحافظ، لمحاكاة التوازن العالمي بالقوة مع اوروبا والمحافظة على الروح الروسية الأرثوذكسية التقليدية في ان واحد، فهو اقرار بأن روسيا لا يمكنها ان تكون نسخة مشوهة من الغرب كما اراد يلتسن، ولا يمكنها الانغلاق التام على الماضي، وانما هي دولة حضارة تملك الحق في ابتكار ديمقراطيتها وسيادتها واقتصادها. وبذلك تحولت الكنيسة من مؤسسة دينية الى خزان للقيم الجماعية، وتحول الاقتصاد من اقتصاد السوق المفتوح للنهب الى قاعدة مادية

46 Межуев Б.В.. "Что дала России дискуссия о «Суверенной демократии»?" Контурь глобальных трансформаций: политика, экономика, право, vol. 2, no. 4, 2009.c.105-108.

مما أنتج شرعية سياسية لسلطته عبر الانتصارات وفق الذاكرة الجماعية، فتشكلت هوية روسية سياسية قيادية فوقية هجومية توسعية، متولدة من القمة باتجاه القاعدة، والسلطة السياسية مركبة تتوارث بالدم والنسب.

٢- التمييز الحضاري والرسالة العالمية والفخر الامبراطوري بين الروس احد مرتكزات الهوية الروسية منذ التخلص من سيطرة المغول عام ١٤٨٠، حيث عد المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية احد اهم خصائص الهوية الروسية الممنحة حق الامبراطور الدفاع عن معتنقي عقيدتهم خارج حدود الدولة الروسية، مما سمح بصياغة هوية روسية إمبراطورية- روحية، تجمع بين الشرعية الدينية والطموح السياسي.

٣- تلازم مع اعادة تشكيل الهوية الروسية عنصر الفرض بالقسر والاجبار عبر اصلاحات بطرس الاكبر سواء في المجال العسكري والسياسي او في المجال الاجتماعي والثقافي والديني، كضرورة ملحة لمواجهة التحديات الداخلية والتهديدات الخارجية، وهو ما يؤكد فرضيتنا ويثبتها بأن الهوية الروسية بمراحل تشكيلها واعادة صياغتها عبر دور الحاكم وجهت من ((الاعلى (الحاكم) باتجاه الاسفل (الشعب))، مما ادى الى تشكيل وصياغة هوية مركبة تجمع بين عدة متبنيات: (الدفاع والهجوم والتوسع) من ناحية وبين

بناء هندسي يعاد تشكيله باستمرار لضمان البقاء والسيادة في مواجهة التحديات العالمية ويبقى الحاكم هو الفاعل الابرز في تشكيلها واعادة صياغتها بما يملكه من رؤية استراتيجية نافذه بإدراك عقله السياسي ومرجعياته الفكرية.

الخلاصة

من خلال الدراسة التي تناولنا فيها التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية ودور الحاكم في صياغتها، الذي كان شاخصاً ومؤثراً عبر مراحل حياة الدولة الروسية، بدءاً من التخلص من سيطرة المغول ولغاية مرحلتها المعاصرة. استخلصنا مجموعة من الاسس الفكرية السياسية المركزية في تشكيل الهوية الروسية. جسّد فاعلها الابرز الحاكم في صياغتها وعن طريق مرجعيته الفكرية التي يؤمن بها كعقيدة في حكم الشعب والدولة والعلاقة المتبادلة بين كلاهما، مع ابراز دور الفكر السياسي الروسي في بلورة تياراته لتشكيل الهوية الروسية وتمثلها في العقل السياسي الروسي. ومن خلال ما تقدم نورد ابرز ما جاء في الدراسة متضمنة الاستنتاجات:

١- تشكلت الهوية الروسية في بداية مراحل تكوينها عبر بناء مركب جمع بين عناصر الدفاع والهجوم والتوسع لاحقاً، عن طريق مهارة الحاكم الذي بلور تلك الهوية بجهوده العسكرية والدبلوماسية خارجياً، وبالتعاون مع الكنيسة الأرثوذكسية ومعاضدتها له وقبول الشعب بإجراءاته داخلياً،

الكنيسة الأرثوذكسية التي منحتة شرعية دينية وسياسية جعلت الوراثة عقيدة راسخة في الهوية الروسية.

٦- وفي ضوء المعطيات الفكرية السياسية السابقة، نبرهن صحة فرضية الدراسة، اذ نتضح معالم الهوية الروسية في تأسيسها واعادة تشكيلها وفق الاولوية بفواعلها المتسلسلة وفقاً لما يأتي:

أ. الحاكم بمرجعياته الفكرية السياسية حيث جسد الفاعل المركزي في هندسة الهوية الروسية متضمنة شرعنة الوراثة، محولاً اياها من آلية انتقال سلطة الى مركز من مرتكزات الهوية السياسية الروسية.

ب. الفكر السياسي، ضابط مؤثر في تشكيل الهوية الروسية، وعامل مصحح ومقوم (مؤيد او ناقد ورافض) لدور الحاكم في صياغة الهوية الروسية واعادة تشكيلها.

ت. الكنيسة الأرثوذكسية ودعمها للحاكم ومدى تأثيره بها من عدمه، وفقاً لأولوياته وهندسته الفكرية.

ث. الشعب الروسي فاعل متلقي باستجابة ايجابية مانحاً الحاكم شرعيته السياسية، او سلبى يعبر اما عن الممانعة او اللامبالاة.

(الموروث البيزنطي والتجديد الأوروبي) من ناحية اخرى، بهدف المحافظة على بقاء الدولة قوية ومستقرة وتعبر عن الشرعية السياسية.

٤- نشأت التيارات الفكرية السياسية لتشكيل الهوية الروسية كرد فعل مؤيد او رافض لسمات الهوية الروسية وخصائصها المركزية التي اعيد تشكيلها ابان عهد بطرس الاكبر، وفق تيارين جوهريين واساسيين: (التيار التغريبي والسلافي) ودورهما المؤثر والفاعل في تشكيل الهوية الروسية بمراحل الدولة اللاحقة، بقدرة الحاكم وبصيرته على الموائمة بالتوظيف الحكيم لهذه المتناقضات لبلورة التوفيق بينهما.

٥- يمثل مبدأ الوراثة مرتكزاً اساسياً في الهوية السياسية الروسية، ففي القيصرية ارتبط بالدم والنسب، وفي المرحلة السوفيتية تبلورت في وراثة الايديولوجيا والتنظيم الحزبي، اما في مرحلة بوتين فقد اتخذت شكل وراثة النفوذ واعادة انتاج السلطة بأليات دستورية وسياسية ممنهجة للحفاظ على الاستمرارية. وبين هذه المراحل ظهر حكم يلتسن ليمثل استثناء عابر دون ان يرسخ تقليد الوراثة، ليبقى مجرد مرحلة تاريخية فاصلة. ورغم اختلاف الوسائل، فإن جوهر الوراثة ظل مرتكزاً ثابتاً بوصفه آلية لترسيخ الاستمرارية وضمان بقاء السلطة. وعلى ذلك فإن مبدأ الوراثة لم يكن من نتاج التاريخ، بل ثمرة تفاعل بين فكر الحاكم السياسي ورغبة السلطة في الاستمرارية مع دعم

إقرار تضارب المصالح	البيان الأخلاقي
يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب محتمل في المصالح فيما يتعلق بالبحث أو التأليف أو نشر هذا المقال.	هذا البحث يتوافق مع المعايير الأخلاقية لإجراء الدراسات العلمية. وقد تم الحصول على موافقة خطية من جميع المشاركين الأفراد المشمولين في الدراسة.
التمويل	بيان توفر البيانات
لم يتلقَ المؤلف أي دعم مالي لإجراء هذا البحث أو تأليفه أو نشره.	البيانات متاحة عند الطلب من المؤلف المراسل.
	الشكر والتقدير
	لا يوجد شكر وتقدير أفصح به الباحث
المصادر	

المصادر باللغة العربية:

- الأبعاد الاستراتيجية لصعود الدب الروسي. (2017). أوراق سياسية. مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات.
- برديائف، ن. (1966). أصل الشيوعية الروسية (ف. كامل، مترجم؛ ر. البراوي، مراجع). الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- بوغانوف، ف. (1990). حياة بطرس الأكبر (خ. الضامن، مترجم). دار التقدم.
- دوغين، أ. (2004). أسس الجيوبوليتيكا: مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي (ع. حاتم، ترجمة وتقديم). دار الكتاب الجديد المتحدة.
- خليينيكوف، ب. (2009). ثعالب الكرملين وعزّاب نهب روسيا بوريس بيرزوفسكي (م. يونس، مترجم؛ ط. 2). دار علاء الدين.
- فرح، س. (2010). الحضارة الروسية: أسئلة الهوية والآخر العربي. دار علاء الدين.
- فرنادسكي، ج. (2007). تاريخ روسيا (ع. س. الزليتي، مترجم). دار الكتب الوطنية.

قبعين، س. (2012). تاريخ آل رومانوف. مؤسسة هندراوي.

قره مورزا، س. (2018). الاتحاد السوفيتي من النشوء إلى السقوط (ش. يوسف، مترجم). الهيئة العامة السورية للكتاب.

لاكوير، و. (2016). البوتينية: روسيا ومستقبلها مع الغرب (ف. زعرور، مترجم). دار الكتاب العربي.

لوسكي، ن. (1984). تاريخ الفلسفة الروسية (ف. كامل، مترجم؛ ز. ن. محمود، مراجع). دار المعارف.

مايرز، س. ل. (2018). القيصر الجديد (ت. ن. خليل، مترجم؛ م. إ. عبد الله، مراجع). العبيكان.

التكريتي، ه. ص. (2015). مقدمة في تاريخ روسيا الحديث: قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها. دار ومكتبة عدنان.

عبد الله، إ. س. ، ويحيى، أ. ع. (2019). تاريخ روسيا الديني من الوثنية إلى المسيحية (سلسلة آشور الأساسية، رقم 3). آشور.

المصادر باللغة الروسية:

Богданов Андрей Владимирович. "Русская идея в философских воззрениях П. Я. Чаадаева" Власть, no. 10, 2011.

Валерий Александрович Фатеев. "Н. Я. Данилевский и его место в истории русской философской мысли. К 200-летнему юбилею мыслителя" Русско-Византийский вестник, no. 4 (19), 2024.

Данилевский Н. Я. Россия и Европа. / Составление и комментарии Ю. А. Белова / Отв. ред. О. Платонов. – М.: Институт русской цивилизации, 2008.

Данилевский Николай Яковлевич. "Россия и Европа" Среднерусский вестник общественных наук, no. 1, 2006.

Дмитриев Михаил Владимирович, Гурьянова Наталья Сергеевна, Буланин Дмитрий Михайлович, Сиренов Алексей Владимирович, and Кореневский Андрей Витальевич. "Теория «Москва — Третий Рим»: Тексты и контексты" Studia Slavica et Balcanica Petropolitana, no. 2 (34), 2023.

- Евлампиев Игорь Иванович, and Громова Екатерина Викторовна. "Славянофильство и западничество как формы русского национального самосознания: анатомия конфликта и его результаты" Вестник Русской христианской гуманитарной академии, vol. 20, no. 3, 2019.
- Ермаков Дмитрий Сергеевич. "Судьба наследия Н. Я. Данилевского в XXI веке" Проблемы современной науки и образования, no. 6 (126), 2018.
- М. Д. Суслов. "Эволюция консервативной утопии в России в XIX веке" Вестник Пермского университета. Серия: История, no. 4, 2003.
- Майорова Елена Ивановна, and Майоров Георгий Александрович. "ЖИЗНЬ, СУДЬБА И НАУЧНО-ФИЛОСОФСКИЕ КОНЦЕПЦИИ Н. Я. ДАНИЛЕВСКОГО" Постсоветский материк, no. 1 (41), 2024.
- Маслин Михаил Александрович. "Николай Данилевский: между славянофильством и панславизмом" Философский журнал, vol. 16, no. 4, 2023.
- Межуев Б.В.. "Что дала России дискуссия о «Суверенной демократии»?" Контурь глобальных трансформаций: политика, экономика, право, vol. 2, no. 4, 2009.
- Храмов Валерий Борисович. "Первое «Философическое письмо» П. Я. Чаадаева как документ эпохи" Культурная жизнь Юга России, no. 2, 2014.
- Ю. С. Пивоваров. "Николай данилевский: в русской культуре и в мировой науке" Мир России. Социология. Этнология, vol. 2, no. 1, 1992.

References

- Abdullah, I. S., & Yahya, O. A. (2019). The religious history of Russia: From paganism to Christianity (Ashur Basic Series, No. 3). Ashur.
- Berdyayev, N. (1966). The origin of Russian communism (F. Kamel, Trans.; R. Al-Barawi, Rev.). Egyptian House for Authorship and Translation.

- Boganov, V. (1990). *The life of Peter the Great* (K. Al-Dhamin, Trans.). Progress Publishers.
- Dugin, A. (2004). *Foundations of geopolitics: The geopolitical future of Russia* (I. Hatem, Trans. & Intro.). Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida.
- Farah, S. (2010). *Russian civilization: Questions of identity and the Arab other*. Dar Alaa El-Din.
- Khlebnikov, P. (2009). *The Kremlin foxes and the godfather of Russia's plunder: Boris Berezovsky* (M. Younis, Trans.; 2nd ed.). Dar Alaa El-Din.
- Karamurza, S. (2018). *The Soviet Union: From rise to fall* (S. Youssef, Trans.). Syrian General Authority for Books.
- Laqueur, W. (2016). *Putinism: Russia and its future with the West* (F. Zaarour, Trans.). Arab Book House.
- Lossky, N. (1984). *History of Russian philosophy* (F. Kamel, Trans.; Z. N. Mahmoud, Rev.). Dar Al-Maaref.
- Myers, S. L. (2018). *The new tsar* (T. N. Khalil, Trans.; M. I. Al-Abdullah, Rev.). Al-Obaikan.
- Qabain, S. (2012). *The history of the Romanovs*. Hindawi Foundation.
- The strategic dimensions of the rise of the Russian bear. (2017). *Political Papers*. Center for Strategic Thought Studies.
- Al-Tikriti, H. S. (2015). *An introduction to the history of modern Russia: The rise of the modern Russian state and the beginning of its expansion*. Adnan House and Library.
- Vernadsky, G. (2007). *A history of Russia* (A. S. Al-Zaliti, Trans.). National Library.